الدكتور
سامي عفيفي حجازي

مدخل لدراسة علم الكلام

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ — ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

لكل علم من العلوم تعريف له يحدده ويدل عليه ، ولذا فلا يطلق عليه علم إلا إذا اشتمل على قواعد وأسس يعرف بها ويتميز بها عن غيره ، وعلم التوحيد كعلم من العلوم لم يخل من ذلك بل تعددت تعاريفه بالحد والرسم ولذا ينبغي الإلمام بهذه الإسس وتلك القواعد التي يقوم عليها علم الكلام: قبل دراسته هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإن لكل علم من العلوم مقدماته واصطلاحاته الخاصة به .

وعلى ضوء هذا نقف لنتناول فى هذا المقام مفهوم علم الكلام لغة وصطلاحاً وكيف نشأ ، وموضوعه ، والغاية التي يجنيها بنى البشر من دراسته ، ومنهجه الذى يقوم عليه .

ثم نقف على المقدمات والاصطلاحات التى ينبغى لدارس علم الكلام أن يلم بها ويقف على مدلولاتها لتتم الفائدة من دراسة هذا العلم .

ولكن قبل تناول مفهوم علم التوحيد ينبغى أن نقف أولا على قيمة الدافع للتأليف فى هذا العلم وأهميته فى الإسلام .

أولا : متى بدأ التأليف فى علم الكلام ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نود أن نقرر أن هناك فارقا بين الإسلام والفكر الإسلامى .

فالإسلام : هو دين الله تعالى المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ ومصدر الإسلام هو الكتاب والسنة .

وأما الفكر الإسلامى فهو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما جاء فى الكتاب والسنة .

ومن ثم فإن الإسلام لأنه يعتمد على وحى معصوم لا إختلاف ولا تناقض فيه .

وأما الفكر الإسلامى فما لاشك فيه أنه يمكن أن يقع فيه الإختلاف حسب اجتهادات المجتهدين ومستوياتهم الفكرية المرتبطة بنقاء الفطرة أو عدم نقائها .

ومن هنا يتضح أن الفكر الإسلامى فى تطوره قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى :

وكانت تتسم بنظام موحد من الإعتقاد ، مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكان المسيطر على بنى البشر والشاغل لهم هو هذا الإيمان القوى بالدين كما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة .

المرحلة الثانية :

وتتمثل فى ظهور البدع المختلفة والقائمة على الجدل فى الدين بقصد إشعال نار الخصومة بين المسلمين حيث كان المشركون يجادلون الرسول « ﷺ » فى وحدانية الله تعالى ويقولون « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب »(١) .

---

(١) سورة ص الآية ٥

كما سألوه عن كنه، ذات الله تعالى فرد القرآن عليهم بقول الله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »(١) .

هذا وقد بين الحق تبارك وتعالى لرسوله — ﷺ — القول الفصل فى معاملاتهم قال تعالى :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » (٢) .

هذا بالنسبة الذين يريدون أن يصلوا إلى الحق ، أما الذين لا يريدون الوصول إلى الحق وإنما قصدهم الجدل المكتوم والسفسطة وخلط الحق بالباطل والتشكيك فى العقيدة ، هؤلاء ورد فى حقهم النداء .

بقول الله تعالى « وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون » (٣).

وقد إتسمت المرحلة الأولى بأناس أتقياء ورعين أحكموا إقامة دوائر بناء الدين فى أنفسهم فصفت فطرتهم وأستقام سلوكهم بالإقتداء برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعرف هؤلاء باسم السلف وهذا الإصطلاح ينطبق على صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أتى بعدهم التابعون .

وأما من خالف أصحاب هذا الإتجاه أو إنحراف عنه فقد عد من أهل البدع والضلالات ومن هنا تجمع أصحاب البدع والضلالات تحت راية الإسلام وحاربوا أهل السنة والجماعة بدعوى الحفاظ على قضايا

---

(١) سورة الإخلاص (٢) سورة العنكبوت الآيه ٤٦

(٣) سورة الحج الآية ٦٩

الدين فى نفوس بنى البشر وفات هؤلاء المتبدعة أن دوائر بناء الدين فى ذات الإنسان تقوم على :

١ — التكاليف البدنية .   ٢ — التكاليف القلبية

الأولى : أى التكاليف البدنية تتكون من التشريعات الإلهيه التى تحكم جميع أفعال المسلمين والعلم الذى يتناولها هو علم الفقه والذى يقول ابن خلدون فى تعريفه .

الفقـه : معرفة أفعال الله تعالى فى المكلفين بالوجوب والندب والكراهة والإباحة ، وهى متلقاة من الكتاب والسنة الشريفة وما نصبه الشارع من الأدلة وهـذه الأحكام يطلقونها على مايقوم به الإنسان من قول أو فعل من الأدلة .

— وعلى هذا فأحكام الدين العملية تنحصر فى خمسة أوجة وهى :

الوجوب والندب والمباح والمكروه والحرام .

— أما الوجوب : فهو الأمر الذى إذا فعله المسلم يثاب عليه كالصلاة والصوم وغير ذلك وإذا تركه يعاقب على تركه .

— وأما المندوب فهو الأمر الذى إذا فعله المسلم يثاب على فعله كالمندوبات من السنن بعد الصلاة وقبلها وغير ذلك . وإذا تركه لا يعاقب على تركه .

والمكروه : فهو الأمر الذى إذا فعله المسلم لا يعاقب على فعله ، وإنما إذا تركه يثاب على تركه كالأسراف فى الماء وأكل ما يأفف كما فى قول الرسول — ﷺ — من أكل ثوما أو بصلاة فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا .

والحرام : فهو الأمر الذى إذا فعله المسلم عوقب على فعله كالزنا والسرقة وإغضاب الوالدين .. . وإذا تركه ثياب على تركه بقدر ما كان يعاقب على فعله كالغيبة المدلول عليها بقوله تعالى : ولا يغتب بعضكم بعضا .

وكالخطاب للكف عن أكل أموال الناس بالباطل المدلول عليه بقوله تعالى : يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .

والمباح : فهو الأمر الذى إذا فعله المسلم أو تركه لا يثاب ولا يعاقب . كالخطاب المبيح للسعى فى الأرض وطلب الرزق بعد الانتهاء من صلاة الجمعة المدلول عليه بقوله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وكالخطاب المبيح للاصطياد بعد التحلل من أعمال الحج المدلول عليه بقوله تعالى : فإذا حللتم فاصطادوا . وعلى هذا فالأمر المندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه لكيلا يستوى مع الواجب المفروض .

والمكروه : لا يعاقب فاعله وإن اثيب على تركه لكيلا يستوى مع الحرام .

والمباح : يستوى فيه طرفا الفعل والترك لأنه مباح كله(١) .

وينبغى أن ننبه هنا إلى أن تقسيم الشرع الحكيم إلى التكاليف القلبية والتكاليف البدنية إنما هو لتسهل البحث والوصول إلى الحق بيسر وسهولة كما يقول الإمام الغزالى إن الله عز وجل كما كلف الجوارح فقد كلف القلوب بالعقيدة والإيمان وكلف الجوارح بالقول والعمل(٢) .

---

(١) راجع العلامة عبد الرحمن بن خلدون المقدمة ص ٤٣٦ ص ٤٦٥ ط الرابعة ١٩٨١م

(٢) المقدمة لابن خلدون وراجع الأمام الغزالى إحياء علوم الدين جـ١ ص ١١٦ ط الحلبى

وعلى ضوء هذا فقد اشتمل الدين على جملة من الأحكام الشرعية بعضها يتعلق بالإعتقادات القلبية وبعضها الآخر يتعلق بالتكاليف العملية واعتبرت الأولى أى الأحكام الشرعية الاعتقادية كالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره أصولا كما بين ذلك صاحب المقدمة فى قوله : واعلم أن الشارع وصف لنا هذا الإيمان الذى هو فى المرتبة الأولى الذى هو تصديق — وعين أموراً مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا واعتقادها فى أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا وهى العقائد التى تقررت فى الدين(١) . أما الأحكام الشرعية البدنية أى العملية فهى على اختلافها .. كالصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد والبيوع ... فإنها تمثل الفروع فى بناء الدين فى ذات الإنسان .

والعلم الأول أى الباحث فى الأحكام الاعتقادية ، هو العلم المعروف باسم علم الكلام أى علم التوحيد .

أما العلم الباحث فى الأحكام العملية على تعددها فهو علم الشرائع والأحكام أو علم الفقه كما تبين فيما سبق وكما وضحه سعد الدين التفتازانى فى شرحه للعقائد النسفية بقوله :

أعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام والمتعلق بالثانية ويسمى علم التوحيد(٢) .

ومن المعلوم كما قال الشهرستانى أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة

---

(١) المقدمة لابن خلدون

(٢) شرح العقائد النسفية ص ١١

وطاعة والمعرفة أصل والطاعة فرع فمن تكلم فى المعرفة والتوحيد كان أصوليا ومن تكلم فى الطاعة والشريعة كان فروعيا .

والأصول هى موضوع علم الكلام ، والفروع هى موضوع علم الفقه(١) .

وعلى ضوء هذا يتضح أن المعنى الأصلى للفقه هو الفهم والمعرفة وقد ظهر مستعملا — أولا — بالمعنى المحدد للاجتهاد فى معرفة أحكام شرعية لم يرد بشأنها معنى صريح ولكنه فيما بعد — أقيم على المعنى الاصطلاحى وهو العلم الذى يعتمد على مصادر أربعة هى :

١ — القرآن الكريم　　　٢ — السنة الشريفة

٣ — الإجماع　　　٤ — القياس

أما النوع الثانى من التكاليف : وهى التكاليف القلبية — فهو الذى يختص بالإيمان الذى قال عنه المؤرخون بأنه : التصديق القلبى الموافق للسان وقد وصف لنا الشارع هذا الإيمان الذى هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا وإعتقادها فى أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا وهى العقائد التى تقررت فى الدين .

وهـــذا الإيمان يتكون من قواعد ست أوضحها الرسول ﷺ ، فى الحديث الذى رواه الإمام مسلم عندما أجاب عليه الصلاة والسلام على سؤال جبريل عليه السلام — عن الإيمان بقوله : أن تؤمن بالله وملائكته

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل بهامش الفصل لابن حزم جـ ١ ص ٥١
وراجـــع د / أبو الوفا الغنيمى التفتازانى — علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٤ ط دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩ م

وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره(١).

فمفهوم التكاليف القلبية والتى هى الإيمان يتناول ستة أمور تتمثل فى:

أولا : المعرفة بالله تعالى وتعنى المعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العلياء والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته سبحانه وتعالى فى الكون كله والوجود جميعه وهذه المعرفة بالله تعالى من شأنها أن تقيم فى الإنسان المشاعر النبيلة المبنية على دوائر بناء الفطرة فى ذاته والتى توقظ حواس الخير فيه.

وتربى عنده ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالى الأمور وأشرفها وتنأى بالإنسان عن محقرات الأعمال ورديئها.

وعلى هذا فالإيمان بالله تعالى كما هو لدى أوائل المسلمين فى عهد النبى ﷺ إنما يقوم على :—

١ — الإيمان بوجود الله تبارك وتعالى الخالق المدبر سبحانه وتعالى.

٢ — الإيمان بأنه تعالى موصوف بكل كمال كنزه عن كل نقص.

ثانياً : المعرفة بالملائكة التى تمثل قوى الخير فى العالم غير المنظور والإيمان بالملائكة هو الإيمان بأن من جملة مخلوقاته تعالى صنفا يسمى بالملائكة، وأنهم كما قرر القرآن الكريم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون :

وهذه المعرفة تدعو إلى التشبه بهم فى مواصلة الطاعة لله تعالى والتعاون على الحق والخير ليس هذا فحسب بل وتدعو إلى الوعى الكامل واليقظة

---

(١) الشيخ سيد سابق — العقائد الإسلامية ص٨ ط الثانية ١٩٦٧م وراجع د/ أحمد أبو السعادات — العقيدة الإسلامية

التامة فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن ولا يتعرض إلا لغاية كريمة .

ثالثاً : المعرفة بكتب الله التى أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح .

وعلى هذا فالمعرفة بالكتب الإلهية إنما هى عرفان بالمنهج الرشيد الذى رسمه خالق الإنسان للإنسان كى يصل إلى الكمال الخلق والسلوكى .

رابعاً : المعرفة بأنبياء الله تعالى ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق والإيمان بكتبه ورسله ليس سوى الإيمان بأنه تعالى أنزل كتبا فيها هدى ونور وأرسل رسلا إصطفاهم من خير خلقه مبشرين ومنذرين لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل .

وأن هؤلاء الرسل صادقون فى كل ما أخبروا به عن الله تعالى وأنهم قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة .

ولذا يقصد بهذه المعرفة ترسم خطاهم والتأسى بهم والتخلق بأخلاقهم باعتبارهم يمثلون القيم الصالحة والحياة الكريمة التى أرادها الخالق لعباده سبحانه وتعالى .

خامساً : المعرفة باليوم الآخر ومافيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

وهذه المعرفة تعتبر أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر إذ المؤمن بهذا اليوم سيحاسب نفسه قبل أن يحاسب ليقينه أنه مسئول عن كل ما يقوم به من قول وفعل .

سادساً : المعرفة بالقدر الذى يسير عليه نظام الكون فى الخلق

والتدبير وهذه المعرفة تزود المرء بقوى وطاقات تتحدى كل العقبات والصعاب وتصغر دونها الأحداث الجسام .

وما عدا ذلك من الأمور العقدية إما داخل تحت هـذه الأمور وإما متفرع عنها .

وهكذا يبدو بجلاء أن الشق الثانى الإيمان وهو التكاليف القلبية إنما يراد منها تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى ، فضلا عن أنها حقائق ثابتة وهى تعد من أعلى المعارف الإنسانية بل هى أعلاها على الإطلاق لا ما ادعاه أصحاب البدع ومنحرفوا الفطرة فى قضايا الدين وتفجير بركان الخلاف بين المسلمين بدعوى الحفاظ على أمور ليست من الدين ولا من قضاياه كما تبين ذلك فيما سبق أى فى جانب التكاليف القلبية والتكاليف البدنية .

وهكذا فإن علم الكلام كما قرر ابن خلدون — يعنى بالإلهيات فى مقابلة علم الفقه .

والنقاش فى هذه العقائد الإيمانية هو الذى كون علم الكلام كما بين ذلك صاحب المقدمة .

وهذه هى العقائد الإيمانيـة فى الذات والصفات ، وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هـذه القضايا بالأدلة العقلية هو علم الكلام(١) .

نعود للإجابة عن السؤال السابق وهو متى بدأ التأليف فى علم الكلام؟ وما هى الأسباب التى دعت إلى ذلك ؟

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٩

ويجيب على هذا السؤال صاحب كتاب الملل والنحل ببعض العبارات التى يفهم منها أنه كان يوجد علم كلام سابق على وجود واصل بن عطاء مؤسس مدرسة الإعتدال حيث يقول الشهرستانى « وأما الاختلافات فى الأصول فحدثت فى أواخر أيام الصحابة بدعة — معبد الجهنى وغيلان الدمشقى — ويونس الأسوارى — فى القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر ونسج على منوالهم واصل بن عطاء(١) » وعلى هذا يتضح أن الاتجاه الإعتزالى كفرقة عرفت باسم المتكلمين كان فى فترة متأخرة كما قرر ذلك الشهرستانى فى قوله « وأما رونق علم الكلام فابتدأه من الخلفاء العباسيين هارون والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل »(٢) .

ومن هنا أيضاً يتضح صدق ما تقدم كما بين ذلك العلامة ابن خلدون حيث يقول « ولما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الأنحاء وألف المتكلمون فى التنزيه حدثت بدعة المعتزلة(٣) .

ليس هذا فحسب بل يعطينا معلومات ليس عن متكلمين سابقين على وجود المعتزلة بل أيضاً بين لنا كيف حدث كلام أولئك المتكلمين ، وماهو ؟ إذ إنه فى حديثه على الأحوال الدينية بين المسلمين — قبل نشأة المعتزلة — يقرر أن السلف فى محاولتهم شرح قواعد الإيمان كانوا يستشهدون بآيات من القرآن الكريم وأحاديث من السنة الشريفة ولما حدثت الخلافات فى الرأى وكانت هذه الخلافات تتعلق بتفاصيل القواعد الإيمانية وخاصة حول الآيات المتشابهات . فدعا ذلك إلى الخصام

---

(١) الشهرستانى — الملل والنحل جـ ١ ص ٣٧

(٢) المرجع السابق لابن خلدون ص٤٦٤ وراجع دكتورعبد العزيز سيف النصر فلسفة علم الكلام ص ١١

(٣) المرجع السابق

والتناظر والإستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحــدث بذلك علم الـكلام](١) .

وعلى هذا فعلم الـكلام حدث حين وقع الخصام والتناظر بين المسلمين وكان المتناظرون يستندون على العقل بالإضافة إلى الأدلة المأخوذة من الـكتاب والسنة وكل ذلك هو الذى أدى إلى حدوث الـكلام السابق على نشأة المعتزلة .

وهذا يوقفنا على نشأة علم الـكلام بين أنصاره وخصومه . ولماذا نذهب بعيداً فلقد كان الصحابة فى عهد النبى — ﷺ — ليسوا فى حاجة إلى مثل هذا الجدل كما تبين فيما سبق .

أما بعد وفاة النبى ﷺ فقد توالت الاختلافات بعضها فى أثر بعض ليس هذا فحسب بل والنتائج تصبح بدورها أسباباً لخلافات جديدة وهكذا ، واستتبع كل ذلك جدلا يدلى فيه كل بحجته وهذا هو المناخ الذى ولد فيه علم الـكلام ونحن فى هذا المقام نختصر الـكلام اختصاراً .

فعقب موت النبى ﷺ اختلف الصحابة فيمن يتولى الخلافة واجتمع الأنصار يتشاورون ليختاروا خليفة من بينهم فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وحاول أبو بكر إقناعهم بأن الخلافة ينبغى أن تكون من قريش وأوصاهم أن يمتثلوا لقول الله تعالى « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون(٢) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٦٣

(٢) سورة الحشر — آية ٨ — وراجع سورة الحجرات الآية ١٥

ثم استطرد أبو بكر فى حديثه بقوله : لقد سمانا الله بالصادقين ، والله يأمر أن نكون مع الصادقين وأنهى حديثه قائلا عن النبى « الأئمة من قريش »(١) .

وهكذا نرى أن أول خلاف دار بين المسلمين كان محاولة حسمه بطريق الاستشهاد بالقرآن والحديث وإكال النظر فيهما واستخراج الرأى منهما كما تبين فيما سبق .

كما حدثت بعد ذلك خلافات فى شأن المواريث ونحو ذلك . ولكن الأمور لم تصل إلى ذروتها إلا عقب مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فى ظروف مليئة بالضباب وجاء على بن أبى طالب واستعمل حرب الجمل وصفين واتفق أن تنتهى بالتحكيم .

وخرج الخوارج على التحكيم وكفروا علياً برضاه عن التحكيم ، وحاربوه حتى انتهى الأمر بالاستقرار لمعاوية .

ومن هنا يتضح مناصرة الأمويين لمعاوية ، والشيعة لعلى والخوارج ينفون عن أولئك وهؤلاء وصف الإيمان ويدخلونهم فى زمرة الكفر وعلى هذا أصبحت قضية الإيمان والكفر منطلق الجدل الذى هو بحق البداية الحقيقية لعلم الكلام وقامت فرقة من الخوارج تجادل فى قضايا الدين باسم العقيدة وتمزق العقيدة باسم الدين بتكفير على ومعاوية والقول حول قضية الإمامة وهل تكون بالاختيار أم بالتعيين . . . ليس هذا فحسب بل أصبحت مسألة مرتكب الكبيرة أيضاً مناط البحث وهنا نشأت فرقة المرجئة لتدلى برأيها فى ذلك وتنادى بترك الجدل وإرجاء

---

(١) راجع دكتور محمد يوسف موسى — الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص ٦٤

الحكم على بنى البشر لخالقهم يوم القيامة والإنصراف إلى نصرة الدين حيث لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع القول بأنه فى العصر العباسى كثر الجدل فى جانب العقائد الإيمانية واتخذ ألوانا لم تكن أيام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا الأولين من صحابته وفى هذا الجو القائم على الجدل وجد علم الكلام .

ويوقفنا على خلاصة هذه القضية فوق ما تقدم قول عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال « خرج علينا رسول الله ﷺ — وهم يختصمون فى القدر فكأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان من الغضب .

فقال : بهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم تضربون القرآن بعضه ببعض لهذا هلكت الأمم قبلكم .

وهذا القول الجامع يوقفنا على التوجيه الحكيم والبيان الشامل الذى أرسى به الرسول ﷺ ـ القول الفصل فى مشكلة القضاء والقدر واجتثاث بذور الفتنة والشقاق بين المتنازعين وذلك بتوجيه أصحابه رضوان الله عليهم إلى المنهج والطريق متمثلا فى :

١ — البعد عن الجدل المؤدى إلى الفتنة والبعد عن كل ما يناقض طريق الفطرة والتوحيد .

٢ — ألا يضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، لأنه لا تعارض بين نصوصه وآياته .

كما يتضح أنه ﷺ منع أصحابه التنازع والجدل ولم يمنعهم التناظر حول قضايا البحث العلمى الهادف للوصول إلى الحق والنجاة من مزالق الشبهات وحول هذه التوجيهات النبوية كان المنهج والغاية .

ثم اتسع الخلاف واشتد الجدل والنزاع حول مسألة القضاء والقدر في عهد الخلفاء الراشدين ويبدو أن السبب في ذلك :

١ — انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فافتقد المسلمون شخصه العظيم وحجته البالغة تصافح آذانهم فتطمئن قلوبهم .

٢ — وقوع بعض القضايا التي كانت تثير تساؤل بني البشر وتبعث في نفوسهم التطلع إلى الوقوف على مشكلة القضاء والقدر .

٣ — ماضمة الاسلام إلى رحابه من أفراد وجماعات حديثة عهد بالدين ولم يفقهوا أصوله ولم يسعدوا بصحبة النبي ﷺ

ولا شك أن هذا يشير إلى أن علم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين في الجدل والمراء ، وإنما نشأ دفاعا عن الدين ودرءا للخطر الذي كان يزلزل قضايا الإسلام من نفوس المسلمين وفي هذا المقام .

يقول بعض الباحثين .

إن علم الكلام الإسلامي لم ينشأ نتيجة سبب بعينه وإنما هو نتاج أسباب متضامنة وعوامل متضافرة حلت بالبيئة الاسلامية واقتضت وجوده على الصورة التي نراه عليها في تاريخ الفكر الإسلامي(١) ولنشأته أسباب داخلية وأخرى خارجية تتمثل في النقاط التالية :

---

(١) دكتور : أبو الوفا الغنيمي التفتازاني — علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٦

أولا الأسباب الداخلية وتتمثل في :

١ — تعرض القرآن بجانب دعوته إلى التوحيد لأهم الفرق والديانات التى كانت منتشرة فى عهد النبى ﷺ ـ فرد عليهم ونقض أقوالهم فكان طبيعيا أن يسلك علماء المسلمين مسلك القرآن فى الرد على المخالفين وكلما جدد المخالفون وجوه الطعن وجدد المسلمون طرق الرد .

٢ — كاد ينتهى العصر الأول فى إيمان خالص من الجدل ولما فرغ المسلمون من الفتح واستقروا أخذوا ينظرون ويبحثون فاستتبع هذا اختلاف وجهة نظرهم فاختلفت الآراء والمذاهب .

٣ — خلافهم فى المسائل السياسية كانت سببا فى الخلاف الدينى . وأصبحت الأحزاب فرقاً دينية لها رأيها : فحزب سيدنا على رضى الله عنه تكون من الشيعة ومن لم يرض به تكون منهم الخوارج ومن كره خلاف المسلمين كون فرقة المرجئة وهكذا .

ثانياً . أما الأسباب الخارجية فهى

١ — أن كثيراً ممن دخلوا الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة يهودية ونصرانية ومجوسية وصابئة وبراهمة وغيرها وقد أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى ثوب دينهم الجديد .

٢ — جعلت الفرق الإسلامية الأولى وخاصة المعتزلة همها الأول الدفاع عن الدين والرد على المخالفين كما سيتضح ذلك فيما بعد من خلال الحديث وفى هذه الفترة كانت البلاد الإسلامية معرضاً لكل الآراء والديانات يحاول كل فريق تصحيح رأيه وإبطال رأى خصمه ـ ومن هنا تسلحت اليهودية والنصرانية بالفلسفة فدرسها المعتزلة ليستطيعوا الدفاع بسلاح يماثل سلاح المهاجم .

٣ - حاجة المتكلمين إلى الفلسفة اضطرتهم إلى قراءة الفلسفة اليونانية والمنطق والتكلم فى شأنها والرد عليها .

كما كانت الخلافة هى المسألة التى اشتد نزاع المسلمين فيها وكان من أثره أن تكون ثلاث فرق تتمثل فى :

١ — الشيعة وهم الذين يرون أن الأحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه :

٢ — الخوارج : وهم القائلون بأن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر بين المسلمين .

٣ — المرجئة وهم الذين كرهوا هذا الخلاف وابتعدوا عن الفريقين وأرجأوا الحكم فيهما لله تعالى

وعلى هذا فلما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامى أخذت تظهر أفكار مجافية للصواب من أصحاب الديانات القديمة فى ثوب دينهم كما تبين فيما سبق وكانت العراق وخصوصا البصرة مظهراً لجميع الملل والنحل .

فقامت جماعة يقولون بحرية الإرادة وعلى رأسهم معبد الجهنى وتكونت منهم فرقة القدرية كما كانت هناك جماعة أخرى يسلبون الإنسان إرادته وعلى رأسهم جهم بن صفوان وتكونت منهم فرقة الجبرية .

ووسط هذا الاضطراب الفكرى والمبادىء التى كونتها كل فرقة لنفسها قام جماعة من المخلصين يشرحون عقائد المسلمين كما هى فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن أشهرهم الحسن البصرى ثم كان الإمام أبو حنيفة وأتباعه .

وفى أواخر القرن الثالث ظهر أبو منصور الماتريدى واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الباطلة وتكونت منه ومن أتباعه فرقة الماتريدية .

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع كان الإمام الطحاوى وأبو الحسن الأشعرى الذى أعلن انفصاله عن المعتزلة وقرر مبادئه الدينية التى صار إليها خيرة علماء المسلمين وظهرت بهذا فرقة الأشاعرة .

ومن هنا كانت جماعة أهل السنة التى توالى عليها علماء الإسلام كالجوينى ثم الغزالى والفخر الرازى وعضد الدين الإيجى والبيضاوى ثم سعد الدين التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى ثم علماء الأتراك وغيرهم إلى اليوم(١) .

الأشاعرة وقد نقل لنا المؤرخون صورة من جدل الأشعرى مع المعتزلة تمثل روح مذهبه واتساق معلوماته واتساع أفقه فقالوا :

تناظر الأشعرى مع أبى على الجبائى أحد أئمة المعتزلة المتوفى ٣٠٣ هـ والجدير بالذكر أن الجبائى كان استاذا للأشعرى قبل أن ينتقل الأشعرى من الإتجاه الاعتزالى .

وسأله عن ثلاثة إخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن بر تقى والأوسط كافر فاسق شقى ، والأصغر مات على الصغر ولم يبلغ الحلم أى سن الرشد والتكليف .

فقال الجبائى : أما الزاهد ويقصد به الأكبر ففى أعلى الدرجات وأما الكافر الأوسط ففى أسفل الدرجات : بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاص واجبان على الله تعالى — عند المعتزلة .

وأما الأصغر فن أهل السلامة لايثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعرى : إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنه .

---

(١) راجع دكتور على جبر مذكره فى علم التوحيد ص ٢٠

فقال الجبائي : يقول الله تعالى : الدرجات ثمرة الطاعات.

قال الأشعري فإن قال الصغير : ليس منى النقص والتقصير فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة ،

فقال الجبائى — يقول البارى تعالى — قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب الأليم فى دركات الجحيم فإن الأصلح لك أن تموت صغيراً .

فقال الأشعرى : إن قام العاصى فى العذاب الأليم مناديا من بين دركات النار : يا إله العالمين « يا أرحم الراحمين ، لم راعيت مصلحة أخى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيراً ولا أصير فى السعير أسيراً فما يقول الرب ؟

فبهت الجبائى فى الحال وإنقطع عن الجدال(١) وفى هذه المناظرة ما يوقفنا على قيمة المنهج العقلى فى الاستدلال .

وهكذا يتضح أن قبل نشأة المعتزلة قد ظهرت إختلافات فى الرأى حول قواعد الإيمان كما يقول البغدادى والشهرستانى .

وكما هو فى أشهر الروايات أن اسم المعتزلة فى الأصل قد أخذ من تلك الواقعة وهى أن واصل بن عطاء قد اعتزل وابتعد عن الرأى المقبول والمجمع عليه عند جمهور المسلمين فى مسألة مرتكبى الكبائر فى الإسلام .

وقال أنه فى منزله بين المنزلتين أى لا هو بكافر ولا هو بمؤمن كما يقول : إن الإيمان عبارة عن خصال الخير إذا اجتمعت فى شخص سمى المرء مؤمنا وهذا بخلاف الفاسق الذى لم يستجمع خصال الخير فلا يسمى

---

(١) راجع الشيخ مصطفى عبد الرازق - التمهيد - نقلا عن مفتاح السعادة جـ٢ ص ٣٦

مؤمناً وليس هو بكافر وأيضاً لأن الشهادة وسائر خصال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها .

لكنه إن خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس في الآخرة إلا فريقان :

فريق في الجنة وفريق في السعير لكنه يخفف عنه العذاب وتكون درجته فوق دركة الكفار (١) وهنا يقول البغدادي : فلما ظهرت فتنة الأزارقة والأهواز واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر وجعل الفسق منزلة بين المنزلتين أي منزلتي الكفر والإيمان .

فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبل طرده عن مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه في الضلالة عمر بن عبيد . فقال الناس يومئذ فيهما : أنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمى اتباعهما من يومئذ معتزلة (٢) .

وبسبب إثباتهم للإرادة الحرة التي ناصروها على أساس من تصورهم الخاص للعدالة الإلهية ، وأيضاً بسبب إنكارهم للصفات الإلهية على أساس من تصورهم الخاص للتوحيد فقد سمى المعتزلة أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد (٣) ومن هنا وضعوا قواعدهم التي سميت باسم الأصول الخمسة

---

(١) راجع الشيخ عبد القاهر البغدادي — الفرق بين الفرق ص ٩٣ تحقيق محى الدين والشهرستاني الملل والنحل جـ ١ ص ٥١ .

(٢) راجع المرجع السابق للبغدادي ص ٩٨ والملل والنحل جـ ١ ص ٣٦ .

(٣) الشهرستاني — الملل والنحل جـ ١ ص ٣٦ .

وهى التوحيد والعدل ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [١] .

ولذا تنحصر مبادئهم فى النقاط التالية : —

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين فمرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب مخلد فى النار وليس مؤمناً ولا كافرا .

(٢) القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرة أودعها الله فيه .

(٣) القول بالتوحيد ، ولهذا نفوا صفات الله تعالى القديمة حتى ليشبه المخلوقين . ودعاهم إلى هذا قيام جماعة تجسد الإله وتشبهه بالحوادث .

(٤) قولهم بأن العقل يحكم بحسن الأفعال وقبحها .

(٥) القول بخلق القرآن وعدم رؤية الله فى الآخرة [٢].

وعلى هذا يتضح أن التأليف فى علم الكلام لم يكن على يد المعتزلة فحسب وإنما سبقهم غيرهم كاتبين فيما سبق وأن علم الكلام الذى ذمه الشافعى وغيره من الأئمة إنما هو علم الكلام الحاوى لمذاهب المخالفين الذين أدخلوا فى قضايا الإسلام أشياء خالفت ما كان يعتقده المتقدمون من الصحابة والتابعين وجمهور الأمة ، وكانت كتبهم تحت لفظ علم الكلام [٣].

ولهذا يجب التفرقة بين علم الكلام الذى دخل فيه من الفلسفة مالا يتفق

---

(١) راجع القاضى عبد الجبار — الأصول الخمسه .

(٢) راجع الأستاذ / حسن أيوب — تبسيط العقائد الإسلامية ص ٢٩٩ .

(٣) راجع د / على جبر محاضرات فى علم الكلام ص ٢١ .

والكتاب والسنة وبين علم الكلام المؤسس على الكتاب والسنة فى مسائله والأول هو الذى يجب إنكاره ودفعه(١) .

أما علم الكلام الذى بدأ التأليف فيه من أوائل القرن الرابع إلى اليوم فليس يذمه أحد من أئمة المسلمين بل يوجبون الأخذ به حيث هو أصل الدين ومناط التكليف .

ومن هنا ابتدأ الأشعرى والماتريدى فى التأليف على مذهب أهل السنة والجماعة والرد على المخالفين وتابعه على ذلك القاضى الباقلانى وأبو بكر ابن فورك وأبو إسحاق والإسفرايني وإمام الحرمين الجوينى ثم أتى الغزالى وأوجب علم الكلام والمنطق ثم توسع فى ذلك الإمام الرازى والآمدى وسار المتكلمون الذين ألفوا كتبهم لنصرة مذهب أهل السنة والجماعة إلى اليوم .

ومن هنا نعلم أن التأليف فى علم الكلام من القرن الرابع إلى اليوم لم يكن إلا لنصرة المذهب الحق والرد على المخالفين (٢).

وإلى هنا نكون قد وقفنا على قيمة الدافع للتأليف فى علم الكلام والملابسات التى حلت به ولنعد إلى ما كنا بصدده وهو تناول مفهوم علم التوحيد فى اللغة والاصطلاح وذلك لما درج عليه الكثيرون من العلماء بتعريف العلم حيث أن التعريف إما أن يكون بالحد أو بالرسم ذلك أن التعريف بالحد إنما يكون بالذاتيات أى بالماهية والحقيقة .

والتعريف بالرسم إنما هو تعريف بالخارج عن الشىء المعرف المميز له

---

(١) راجع الدكتور محمد يوسف موسى — الإسلام وحاجة الانسانية إليه ص ٦٧ نقلا من مفتاح السعادة ح ٢ ص٢٣ وما بعدها .

(٢) دكتور على جبر / المرجع السابق ص ٢١ .

عن جميع ماعداه ، وقد يتأتى ذلك بتعريف الشيء بفائدته والغاية منه فإنها خارجة عن ماهيته .

وعلى هذا نشرع فى تناول مفهوم هذا العلم :

علم التوحيد : مركب إضافى صار علما على هـــذا العلم المدون المعروف بعلم الكلام ، ولفظ العلم هذا ينحصر فى عدة إطلاقات :

— إما أن يطلق على إدراك المسائل المتعلقة بالعلم .

— وإما على المسائل نفسها .

— وإما على الملكة . أى السمة الراسخة . الحاصلة من إدراك المسائل وممارستها (١) وهذا البيان يدعونا للوقوف على المعنى اللغوى والاصطلاحى ولكن قبل تناول مفهوم علم التوحيد ينبغى أن نقف أولا على إطلاقات العلماء لهذا العلم .

---

(١) د/ مصطفى عمران — مقدمة فى علم الكلام ص ٣٥ .

أسماء هذا العلم

سمى هذا العلم بأسماء متعددة منها علم التوحيد وعلم أصول الدين ، وعلم الفقه الأكبر وعلم العقيدة وعلم الكلام ولكن أكثرها إطلاقا ما ذكرنا فيما تقدم وهو علم التوحيد وذلك أن بحث الوحدانيه هو المقصد الأسمى والمطلب الأعلى بعد الوقوف على الأدلة القاهرة على وجود الله تعالى ، ولذا فالذين يطلقون على مباحث هذا العلم — علم التوحيد قد لاحظوا أن مبحث الوحدانيه هو أهم مباحث هذا العلم — ولما كان الأمر كذلك فقد جعلوا عنوانه علما على العلم كله أى تسمية للعلم بأشهر مباحثه باعتباره يبحث فى الحجج التى تؤيد ما يجب لله وما يجوز وما يستحيل(١) .

— وقد يسمى — علم — أصول الدين وذلك لأن مباحث العقيدة أصل لما تلاها من علوم الدين الأخرى كالتفسير والفقه والحديث . . . كما عللت هذه التسمية أى علم أصول الدين بأنه يبحث فى العقائد التى هى الأصول التى يجب على كل مكلف أن يعتقدها قبل أن يقدم على العمل بل أن العمل لا ينفع فى الدار الآخرة دون اعتقاد هذه المسائل العقدية . أما فى باقى العلوم الأخرى فإنها تبحث فى الفروع ومن هنا سمى هذا العلم بهذا الاسم .

وسمى بعلم الفقه الأكبر وذلك لأن هذا العلم يقوم البحث فيه حول الأحكام الأصوليه أى الإلهيات والنبوات والسمعيات وهذا فى مقابلة علم الفقه الذى يبحث فيه عن الفروع وذلك باعتبار أن الأصل أكبر من فرعه وإن كان الفقه هو الفهم ، فأكبر الفهم وأفضله ما توجه إلى الملأ الأعلى والذات الأقدس والوحى الالهى .

وهذه التسمية كما قلنا فى مقابلة الفقه الأصغر ، وهو فقه العبادات .

---

(١) راجع الإمام محمد عبده — رسالة التوحيد ص ٤٠

والمعاملات فلاعبادة إلا بعدمعرفة المعبود الحق ولا معاملة إلا بمعرفة الطريق والمنهج الذى أنزله الحق تبارك وتعالى على رسله .

كما يسمى بعلم العقيدة والذين أطلقوا هذه التسمية إنما أطلقوها بناءعلى الثمرة المرجوة منه وهى انعقاد القلب انعقادا جازما لا يقبل الانفكاك كما أشار إلى ذلك صاحب المقاصد بقوله : تحلية الإيمان بالأيقان [1] وهى الأمور التى تعتقد بالقلب وتصدق بالجنان ويطئن إليها الفؤاد .

ولكن الذى شاع بين المسلمين تسميته بعلم الكلام ولهذه التسمية عدة تعليلات منها :

(أ) أن مسألة كلام الله تعالى قد طال فيها الجدل واحتدم حولها النزاع بين فرق المتكلمين ، فيكون من باب تسمية الكل باسم الجزء .

— ومنها أنه سمى بذلك لأن الباحثين الأول كانوا يترجمون لمسائله بقولهم الكلام فى العلم ، الكلام فى الصفات ، الكلام فى الجنة والنار ... وهكذا فى بقيه مسائله وعلى هذا فرد التسمية إلى أن المباحث الأساسية فى بداية الأمر كانت عناوينها على النحو السابق .

— أو لأن هذا العلم يورث طلابه ويمنح المشتغلين به القدرة على الكلام فى تحقيق عقائد الدين وتجلية أصوله [2] كما يقول صاحب المواقف إنما سمى كلاما إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام فى كذا أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات ومع الخصم [3] .

---

(١) سعد الدين التفتازانى — المقاصد ج ١ ص ١٠

(٢) راجع د/ مصطفى عمران — المرجع السابق ص ٢٨

(٣) الموقف ص ٨

— ويقول البعض إن مباحث هذا العلم تبدأ بالجدل المبنى على الكلام بين طرفين وعلى هذا يكون المراد بالكلام هنا هو ما يشمل كلام الموافقين والمخالفين .

— ويقول أخرون : إنه لقوة أدلته عند طرف فكأنه يقول هذا هو الكلام أى القاطع دون سواه وذلك فى المسائل التى وقع فيها الخلاف كما قال الشيخ محمد عبده لأنه فى بيان طرق الإستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تجلية مسالك الحجة فى علوم أهل الفلسفة والمنطق وهما مترادفان(١) وهناك أراء أخرى كثيرة ومما لا شك فيه أن مسمى هذه الأسماء واحد ولكن لكل وجهة فى إيثار ما يراه دون غيره مع الوقوف على ما يورده فى نظره كما تبين فيما سبق .

وبعد هذه البيان لمسميات هذا العلم نعود للوقوف حول ما وعدنا به فيما تقدم أى على معنى هذا العلم فى اللغة والاصطلاح .

---

(١) راجع الشيخ محمد عبده — رسالة التوحيد ص ٥٤

المعنى اللغوى لعلم التوحيد

يدور أى معنى من المعانى فى فلك ودائرة اللفظ المطلق له على حسب ما بينها من رابطة تجمعها فى الأصل والإشتقاق وعلى هذا فالتوحيد فى اللغة مصدر (وحد) بتشديد الحاء تقول : وحدت الشىء أى جعلته واحدا أو اعتقدته واحدا ، والواحد من صفات الله تعالى معناه أنه لا ثانى له ذو الوحدانية والتوحيد وأنه المنفرد بالإيجاد والتدبير(١) .

وعلى هذا فالتوحيد فى اللغة العلم بأن الله واحد لا شريك له أى إنفراد المعبود بالعبادة التى هى الطاعة وهى أبلغ من العبودية لأنها غاية الخضوع والتذلل التى لا يستحقها إلا من له غاية الأفضال(٢) وكما قال ابن منظور فى لسان العرب التوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له(٣) قال تعالى (قل هو الله أحد)(٤) ، وقال تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)(٥) .

---

(١) د/ مصطفى عمران — المرجع السابق

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى جـ ٤ صـ ٩ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٦٧ هـ

(٣) ابن منظور — لسان العرب — مادة وحد

(٤) سورة الاخلاص — وعلى هذا يتضح أن المعبود إذا خصص فيكون هو الله تعالى ويكون هو المعبود بحق ، وأما إذا أطلق فيشمل كل معبود بحق أو بباطل — فإذا جاءت معرفة بالألف واللام فهى تعنى الإله المعبود بحق — راجع تحفة المريد على جوهرة التوحيد صـ ١٠ لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى

(٥) سورة البقرة آية ١٩٣

وأما الأدلة من السنة النبوية فكثيرة منها قول الرسول ﷺ «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على توحيد المعبود وانفراده بالعبادة وهذا يوقفنا على معنى التوحيد في الشرع الذى جاء به الدين وأنه إفراد المعبود الحق بالعبادة مع اعتقاد وحدته في الذات والصفات والأفعال أى نفى التعدد فى ذاته تعالى وفى صفاته وأفعاله(١).

وعلى هذا فالتوحيد: مصدر وحد يوحد ، ومعنى وحدت الله اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته وأفعاله بلا نظير ولا شبيه ولما كانت الألفاظ قوالب للمعانى فإننا نقف لنتناول المعنى الاصطلاحى.

المعنى الاصطلاحى لعلم التوحيد :

الاصطلاح على الشىء الدلالة على معناه باتفاق وذلك بما يشعر بحقيقته ويناسب موضوعه ويعين مدلوله من غير لبس ولا إخلال وعلم التوحيد بالمعنى الاصطلاحى — أعنى العلم المعروف والمدون كما وقفنا على ذلك من خلال تناول عوامل نشأته عرف بالحد كما عرف بالرسم.

والتعريف بالحد لعلم ، إنما يكون بأخذ موضوع هذا العلم الذى يراد حده فى التعريف ، ولذا فالتعريف بالحد إنما يكون بالذاتيات أى بالماهية والحقيقة والتعريف بالماهية والحقيقة هو تعريف بالحد(٢).

---

(١) شرح جوهرة التوحيد للشيخ محى الدين عبد الحميد .

(٢) وفى هذا الإطار فإن من جعل موضوع علم التوحيد هو ذات الله ورسله والسمعيات حده بأنه : علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى ثم رسله من حيث ما يجب وما يجوز وما يستحيل ، وعن السمعيات التى أخبر بها الصادق . ومن جعل موضوعه الموجودات من حيث يتوصل بها إلى إثبات العقائد حده بأنه : علم يبحث فيه عن الموجودات .

=

وأما التعريف بالرسم فإنما هو تعريف بالأمر الخـــارج عن الشيء المعرف والمميز له عن جميع ماعداه وقد يتأتى ذلك بتعريف الشيء بفائدته والغاية منه فإنها خارجة عن ماهيته ولذا ذكر العلماء رسوما متعددة لعلم التوحيد.

وما ذلك إلا لأنه العلم الذى يتناول جليل الكلام ودقيقه وعلى هذا وذاك فقد وردت عدة تعريفات لعلم الكلام نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، تعريف الجرجانى :

بأنه علم باحث عن الأعراض الذاتية للوجود ، من حيث هو على قاعدة الإسلام(١). وهذا التعريف يقوم على بيان موضوع علم التوحيد باعتبار أن موضوعه هو ذات الله تبارك وتعالى من حيثيات إعتقادية ، ولما كان العلم هو الذى يبحث فية جاء اللفظ على سبيل المجاز ، وأنه الباحث بينما العلم هو مادة البحث ولا ضير فى ذلك كما تبين فيما سبق(٢).

كما ورد فى هذا المقام تعريف للإمام محمد عبده بأنه :

العلم الذى يبحث فيه عن وجود الله تبارك وتعالى وما يجب أن يثبت له من صفات ومايجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل

= ومن جعل موضوعه المعلومات من حيث يتوصل بهـــا إلى إثبات العقائد الدينية حده بأنه علم يبحث فيه عن المعلومات أى من هذه الحيثية راجع د/مصطفى عمران — المرجع السابق ص١٦

(١) السيد الشريف — التعريفات ص١٥٦ ط الأولى ١٩٨٣م بيروت.

(٢) راجع ص ٢٠ من البحث وراجع د / على جبر — محاضرات فى علم الكلام ص ٩

لإثبات رسالتهم، ومايجب أن يكونوا عليه، ومايجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم(١).

وعن بيان الحياة الآخرة، أى السمعيات التى أتى بها الشرع الشريف، ودلل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة باعتبارها مغيبات يجب التصديق بها ولايتم الإيمان الكامل بدونها.

كما ذكر العلماء له رسوما متعددة تختلف فيما بينها بحسب الغاية ومن هذه التعريفات تعريف الإمام عضد الدين الإيجى فى كتابه المواقف بأنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.

والمراد بالعقائد ما يقصد فيه نفس الإعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ(٢).

كما عرفه الفارابى فى كتابه إحصاء العلوم بقوله: وصناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل(٣).

وعرفه ابن خلدون بقوله: علم الكلام علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة(٤).

كما عرفه الشيخ مصطفى عبد الرازق بقوله: علم الكلام علم يبحث فيه

---

(١) الأستاذ الإمام محمد عبده — رسالة التوحيد ص٧ ط الشعب.
(٢) الإيجى — المواقف الموقف الأول فى المقدمات.
(٣) راجع إحصاء العلوم ص١٠٧ تحقيق د/عثمان أمين ط الثالثة ١٩٦٨م
(٤) ابن خلدون — المقدمة ص٤٥٨ ط الرابعة ١٩٨١م.

عن ذات الله وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ أو المعاد على قانون الإسلام ، وقد أبان فى شرح هذا التعرف أن القيد بقوله على قانون الإسلام أخرج به العلم الإلهى للفلاسفة، ثم قال،الكلام باحث عن أمور يعلم فيها المعاد ، ومايتعلق به من الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب وقيل الكلام هو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من الأدلة(١)،

كما ورد عن بعض الباحثين أن التوحيد يطلق بإطلاقين :

أولا : المعنى الشرعى الذى جاء به الإسلام وقرره القرآن الكريم فى كثير من صوره وآياته أعنى إفرار المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .

ثانيا : بالمعنى الاصطلاحى المدون: وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، أو هو العلم الباحث فيما يجب لله تعالى ومايستحيل وما يجوز وعن السمعيات(٢).

وهى الأمور المتعلقة بالحياة الآخرة من موت وفناء وبعث وحشر وثواب وعقاب وجنة ونار وأحوال يوم القيامة.

كما عرف بأنه : معرفة النفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلى دين الإسلام(٣). وتلك المعرفة التى ينشدها وينادى بها إنما هى معرفة وجوبية يلتزم بها المكلف ليخرج بها عن دائرة التقليد المؤدى إلى البعد عن الصواب

---

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦١

(٢) دكتور سليمان خميس ـ مذكرة فى التوحيد ١٩٦٣ م

(٣) العلامة الكمال بن الهمام الحنفى ـ المسايرة ص ٥ نقلا عن الأستاذ محمد حسنى موسى محمد فى مؤلفه ـ قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ص ٥٨ ط الأولى ١٩٨٧م

فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار ، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان[(١)].

كما حــد الشيخ ابن عرفة علم الكلام : بأنه العلم بأحكام الألوهية وإرسال الرسل ، صدقها فى كل أخبارها وما يتوقف شىء من ذلك عليه خاصاً به وتقرير أدلتها بقوة هى مظنة لرد الشبهات وحل الشكوك [(٢)].

وعلى هذا فعلم الكلام يتضمن العلم بأحكام الألوهية وإرسال الرسل وصدقهم فى كل مايخبرون به ومنه أحكام المعاد وكذلك العلم بالشىء الذى تتوقف عليه أحكام الألوهية وأحكام إرسال الرسل .

وهذا الأمر هو حدوث العالم . أو ثبوته وإمكانه ، اللذان يتوقف عليهما ثبوت بعض أحكام الألوهية ، كثبوت القدرة والإرادة مما كان دليله العقل وثبوت بعض أحكام الرسالة كثبوت صدق الرسل فى الأخبار الدالة على الأحكام الشرعية وذلك متوقف على المعجزة المتوقفة على حدوث العالم .

وخرج بقوله خاصا به — علم المنطق — فإنه وإن توقف عليه شىء من أحكام الألوهية ، وأحكام الرسالة ، إلا أنه ليس خاصا بذلك الذى توقف عليه ، بل يستخدم فى جميع العلوم هذا من ناحية ومن ناحية ثانية يتضمن علم الكلام حسب هذا التعريف تقرير أدلة الإلاهيات والنبوات والبعث .

---

(١) الامام محمد عبده — رسالة التوحيد صـ٢٢ وراجع المرجع السابق .

(٢) راجع أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى — السنوسية الكبرى ص ٩٦ .

وكذلك المقدمات الضرورية لهذه الأدلة ، وحل الشكوك التي ترد على أمور العقيدة (١) .

كما حده ابن التلمساني بأنه العلم بثبوت الألوهية والرسالة وما يتوقف معرفتهما عليه من جواز العالم وحدوثه وإبطال ما يناقض ذلك (٢) .

● وبالمقارنة بين تعريف ابن عرفه وابن التلمساني يتضح لنا ما وقفنا عليه فيما مضى — وإن كان ابن عرفه قد رد تعريف ابن التلمساني بأنه غير جامع لخروج أحكام المعاد منه وأحكام المعاد هي المتعلقة بعود الأجسام إلى ما كانت عليه والتسليم بالصراط والميزان وغير ذلك من أحوال الحياة الآخرة .

والتعريف يجب أن يكون جامعا مانعا ، أي جامعا لكل أفراد المعرف مانعا غيره من الدخول فيه كما يبين ذلك أصحاب فن المنطق .

وهنا يمكن أن نقول كما قال صاحب فلسفة علم الكلام إنه يجاب عن ابن التلمساني بأن تعريفه جامع وأنه يشمل أحكام المعاد إذ هي داخلة في قوله والرسالة — لأن المراد العلم بثبوت ما تضمنته الرسالة ولا شك أن ذلك شامل لأحكام المعاد ، إذ الرسل قد أخبروا بها ، وحينئذ فلا فرق بين تعريفيهما أي لا فرق بين تعريف كل منهما والآخر .

وهنا يتحقق ما وقفنا عليه ، وهو أن هذه التعاريف السابقة وإن بدت في هيكل ظهورها مختلفة الألفاظ إلا أنها في الحقيقة يجمعها أساس واحد وهو تجلية العقيدة الإيمانية بشكل عام وفي الدين الإسلامي بشكل خاص ، تقريرا ودفاعا لتزول الشبه ويعود الإدراك إلى الطريق السليم

---

(١) راجع د / عبد العزيز سيف النصر — فلسفة علم الكلام ص ٦٨

(٢) راجع السنوسة الكبرى ص ٩٧

الموائم للفطرة والتوحيد وذلك بإقامة التكاليف الإيمانية فى ذات الإنسان والتى هى أساس مباحث الدين ومن هنا يتضح أن علم الكلام من العلوم الشرعية المصطبغة بصبغة عقلية وتدور مسائلة حول أصول العقائد الإسلامية وإثباتها والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها (١) .

وفى كل هذا ما يوقفنا على كثرة التعريفات التى قدمت بين يدى علم الكلام فى دائرتى الحقيقة والماهية أو الغاية والثمرة مما ذكرناه وغيرها مالم نذكره ، وذلك لأن أقلام المعرفين متعددة فاختلافهم فيه ليس اختلاف التغاير فى المفهوم .

ولكنه التعدد القائم على تجلية الموضوع والثمرة والفائدة من وجهة نظر المتناولين لقضايا هذا العلم .

ولذا فمنهم من وقف به عند توضيح العقائد الدينية والدفاع عنها (٢) ومنهم من قصر مهمته على الناحية الدفاعية سواء أكان ذلك فى مواجهة أعداء الدين الذين يتربصون به الدوائر ، أم فى مواجهة شبهات ووساوس المترددين (٣) .

وعلى هذا يتضح أن علم الكلام يراد منه الدفاع عن عقيدة التوحيد المتلقاه من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وهذا المنهج يتمثل فى الدور الإيجابى والدور الدفاعى .

---

(١) راجع د / أبو الوفاء الغنيمى التفتازانى — علم الكلام وبعض مشكلاته ص ٦

(٢) كما فى كتاب المواقف للقاضى عضد الدين الإيجى .

(٣) كما فى مقدمة ابن خلدون .

أما الأول : فقائم على إثبات العقيدة بالنقل والعقل .

أما الثانى : فقائم على رد دعاوى الخصوم أو شبهات الحائرين وفى هذا المقام يقول الإمام الشعرانى رحمه الله تعالى — أعلم رحمك الله — إن علماء الإسلام ماصنفوا كتب العقائد ليثبتوا فى أنفسهم العلم بالله تعالى ، إنما وصنعوا ذلك ردعا للخصوم الذين جحدوا الإله أو الصفات أو الرسالة ، أو رسالة ـ محمد ﷺ ـ بالخصوص .. ونحو ذلك مالا يصدر إلا من كافر فطلب علماء الإسلام إقامة الأدلة على هؤلاء ليرجعوا إلى اعتقاد وجوب الإيمان بذلك لا غير (١)

ومن هنا يمكننا القول أن مقاصد علم التوحيد تتمثل فى

١ — توضيح العقائد الدنيية وماتشتمل عليه

٢ — اندفاع عنها وتفنيد الشبهات التى يثيرها الخصوم للنجاة من ألوان الشرك الشائع .

٣ — إبطال العقائد الجافيه لمنهج الفطرة والتوحيد .

وعلى هذا وذاك فمها تعددت التعريفات فإنها تلتقى عند رتبة من التزكى والتقوى ـ وذلك بمعنى أنه فى كل جانب من جوانب الحديث عن التوحيد لا نكاد نفقد الجانب التنزيهى للواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ولذا فمركز التوحيد من الإنسان يعدل مركز القلب من الجسد إذا صلح صلحت النفس وإذا فسد فسدت النفس .

وإلى هنا نكون قد وقفنا على تعريف علم الكلام والمسائل التى يتناولها هذا العلم تشير إلى أهميته وفائدته وموضوعه .

وهذا ماسنتناوله فى النقاط التاليه : —

---

(١) اليواقيت والجواهر جـ١ صـ٢٢

موضوع علم الكلام

لكل علم موضوع يختص ببحثه ، أى أن كل علم يشتمل على مسائل متعددة يجمعها جهة واحدة ذاتية ، فهذه الجهة تسمى موضوع ذلك العلم كما قال الجرجانى : موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الصحة ، والمرض ، وكالكلمات لعلم النحو ، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء[١] .

وعلى هذا فعلم الكلام هو العلم الذى يبحث فى أصول العقيدة الإيمانية، مؤيداً لها، ودافعاً الشبه عنها بالحجة والبرهان كما تبين فيما سبق حول تعريفه بالحد أو بالرسم كما قال علماء الكلام بأنه العلم الذى يبحث فيه عن دقيق[٢] الكلام وجليله .

ومن هنا فقد بات من المؤكد أن موضوع علم الكلام يدور حول قضايا العقائد الإيمانية بشكل عام وفى الدين الإسلامى بشكل خاص ، ولما كان الدين يقوم على جملة من الأحكام بعضها يتعلق بالأمور الاعتقادية، وبعضها يتعلق بالأمور العملية من عبادات ومعاملات كما وضح ابن خلدون

---

(١) الجرجانى — التعريفات . باب الميم ص ٢٣٦ طبعة الأولى بيروت لبنان ١٩٨٣ م .

(٢) جليل الكلام: أى الموضوعات الأساسية والذاتية لهذا العلم ويرجع فيه إلى كتاب الله تعالى .

ودقيق الكلام : يقصد به المقدمات العقلية التى توقف الباحث على إثبات العقائد والتدليل عليها — راجع المواقف للإيجى — جزء ١ ص ٥٦

الأمور الاعتقادية بأنها الأمور التى كلفنا بتصديقها بقلوبنا واعتقادنا فى أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا ، وهى التى تقررت بقول النبى — ﷺ — فى كلمته الجامعة حين سئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهـــذه هى العقائد الإيمانية المقررة فى علم الكلام(١) .

كما تبين فيما سبق أن بناء الدين يقوم فى ذات الإنســان على أصول وفروع ، وعلم الكلام يتناول أصول الدين فى مقابلة علم الفقه الذى يتناول الأحكام العملية ، ولذا كان تمايز العلوم إنما هو بحسب تمايز الموضوعات، فعلم الفقه كما قلنا إنما ينفرد علم أصول الفقه بموضوعه ، وذلك لأن الأول أى علم الفقه إنما يبحث فى أفعال المكلفين من حيث أنها تحل وتحرم ، وتصح ولا تصح ، وهذا بخلاف موضوع علم أصول الفقه الذى يبحث فيه عن الأدلة السمعية من حيث أنها يستنبط منها الأدلة الشرعية .

ولما كان لهذا موضوع ولذلك موضوع آخر صار علمين متميزين منفرداً كلا هما عن الآخر هذا فى دائرتى علم الفقه وعلم أصول الفقه، وعلى هذا فقد بات من المؤكد كما قلنا أن موضوع علم الكلام هو البحث حول القضايا الإيمانية فى العقيدة الإسلامية . كما بين ذلك الرسول ﷺ فى قوله الجامع عن عبيدة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وإن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل »(٢) وهذا الحديث يتضمن الأصول الثلاثة للعقيدة الإسلامية التى أوجب الإسلام على المسلم معرفتها ، والإيمان بها لتكتب له النجاة فى الآخرة وهى المباحث التى وقفنا عليها :

---

(١) راجع العلامة ابن خلدون . المقدمة ص٤٦٢ ط الرابعة — بيروت لبنان ١٩٨١ م

(٢) الحديث أخرجه الإمام البخارى والإمام مسلم والترمذى .

الأصل الأول :

معرفة الله تعالى وصفاته ، والإيمان بهما ويطلق على جملة المباحث المتعلقة بها اسم الإلهيات .

الأصل الثانى :

معرفة الواسطة بين الله وعباده ، وهى الإيمان برسل الله وملائكته ، وكتبه وما جاءت به من تشريعات وتكاليف ويطلق على جملة المباحث المتعلقة به إسم النبوات .

الأصل الثالث :

معرفة البعث ، والحساب والجزاء والإيمان بهما ويطلق على المباحث المتعلقة بها إسم السمعيات(١) .

وعلى هـذا فقد تعددت أقوال المتكلمين فيما يتعلق بموضوع علم الكلام لدى المتقدمين والمتأخرين وتتمثل فى النقاط التالية :

أولا : موضوع علم الكلام لدى المتقدمين ويشتمل على :

(١) الإلهيات ويقوم البحث فيها حول ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وبالجملة كل التنزيهات وصفات الجلال والكمال والأفعال كما فى قوله تعالى .

« ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

---

(١) راجع د/ محمد عبد الرحمن بيصار — العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع ص٨٠ ط الرابعة ١٩٨٣م

كما يرتبط البحث فى هذا المقام حول القضايا التى تتعلق بالقضاء والقدر والحسن والقبح والصلاح والأصلح والجبر والاختيار .

(ب) النبوات ويقوم البحث فيها حول النبوة والرسالة وصفات الأنبياء والرسل والمعجزات التى يظهرها الله تعالى على أيديهم تأييدا لهم من حيث أنهم الصفوة المختارة من خلق الله تعالى كما بين ذلك صاحب نهاية الأقدام فى علم الكلام حيث يقول : والأنبياء خيرة الله فى خلقه ، وحجة الله على عباده والوسائل إليه ، وأبواب رحمتــه وأسباب نعمته ثم يقول : فكما يصطفيهم من الخلق قولا بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلا بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق ، وكرم الأعراق فيرقيهم مرتبة مرتبة (١) من حيث مايجب لهم ، وما يجـوز فى حقهم وما يستحيل عليهم .

(ج) السمعيات ويقوم البحث فيهما حول القضايا التى لا تتلقى إلا من السمع أو الشرع كالبعث والحشر والميزان والحوض والشفاعة والثواب، والجنة والنار وما إلى ذلك من أحوال الحياة الآخرة كما يبين ذلك الإمام البيضاوى عن موضوع علم التوحيد بقوله :

«إنه هو ذات الله تعالى، وذوات المخلوقات لأنه يبحث فيه عن صفات الله وأحوال المخلوقات من حيث أنهــا توصل إلى اليقين فيما يجب الإيمان به(٢) وهو كل ما أخبر به الأنبياء عن الله تبارك وتعالى .

ثانياً : كما يطلق موضوع علم الكلام عند بعض المتأخرين من علماء

---

(١) راجع أبى الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى — نهاية الأقدام فى علم الكلام القاعدة العشرون ص ٤٦٣

(٢) راجع سعد الدين التفتازانى شرح المقاصد جـ ١ ص ١٠ ، وراجع الشيخ مصطفى عبد الرازق — التمهيد فى تاريخ الفلسفة ص ٢٦٩

الكلام أنه الموجود من حيث هو موجود — أى الموجودات من حيث يتوصل بها إلى إثبات العقائد الدينية أى من حيث دلالتها على أن موجدها واجب الوجود .

ومن حيث دلالتها على صفاته الجليـــة ومن حيث دلالتها على أفعاله الحكيمة . أى أن الموجودات تدل على ذلك من جهة حدوثها أو إمكانها ، أو من جهتهما معا المقتضى افتقارهما إلى الموجود والمؤثر .

ثالثاً : كما يطلق موضـــوع علم الكلام لدى البعض الآخر من المتأخرين على أنه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية أى المعلومات :

من حيث : دلالتها على أن موجدها واجب الوجود .

من حيث : دلالتها على صفاته ونعوته الجلية .

من حيث : دلالتها على أفعاله الحكيمة .

أى من حيث ما يعرض للمعلومات من وجوب واستحالة وجواز للتوصل بالتالى إلى واجب الوجود وصفـــاته الجليلة ، وأفعاله الحكيمة(١) .

وفى هذا المقام يذكر صاحب التمهيد قوله عن موضوع علم الكلام إنه : ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين .

— وقيل موضوعه : الوجود من حيث هو موجود ، وإنما يمتاز عن

---

(١) راجع دكتور/ مصطفى عمران الاقتصاد فى الاعتقاد للإمام الغزالى القسم الأول ص ٣٢

العلم الإلهى الباحث عن أحوال الوجود المطلق باعتبار الغاية لأن البحث فى الكلام على قواعد الشرع وفى الإلهى على مقتضى العقل .

ثم قال عند المتأخرين موضوعه « المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية المنسوبة إلى دين محمد — ﷺ — وذلك بأن يسلم المدعى منه ثم يقام عليه البرهان العقلى[1] .

وعلى هذا وذاك يتضح أن سبب الإختلاف والتعدد فى الآراء بين المتكلمين حول تعريف علم الكلام وموضوعه كما تبين فيما سبق راجع إلى طبيعة الموضوعات والقضايا التى كان يتناولها هذا العلم فى العصور المتعددة .

ولذا يقول أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتاب «التمهيد» وقد اشترط علماء التوحيد فى علم الكلام شرطين :

الأول : أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل .

الثانى : أن تكون العقيدة مما وردت فى الكتاب والسنه .

فإذا لم يتحقق هذان الشرطان لا يسمى كلاماً ولا يدخل فى دائرة علم الكلام[2] .

ومن هنا كان التعدد للتعاريف إنما هو قائم على الإحاطة بأطراف هذا المعنى وطبيعة الموضوعات التى كان يتناولها هذا العلم كما كان لدى المتقدمين من أصحاب الكلام والمتأخرين فنهم من قصر موضوعه على العقائد وكيفية الاستدلال بالأدلة العقلية والنقلية .

---

(١) راجع الشيخ مصطفى عبد الرازق — التمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦١ ، ص ٢٦٥

(٢) راجع المرجع السابق .

ومنهم من قصر موضوعه على الجانب الدفاعي فقط .

ولذا فمن البين أنه عند المتقدمين أخص منه عند المتأخرين مطلقاً ، كما أنه لدى البعض من المتأخرين أي بعد أن اختلطت مباحث علم التوحيد بالقضايا الفلسفية كما هو لدى البعض القائل بأنه الموجود أخص منه عند البعض القائل أنه المعلوم حيث إن المعلوم يشمل الموجود والمعدوم معاً .

وبعد هذا فإن هذه المسائل التي يتناولها علم الكلام كما هي لدى المتقدمين والمتأخرين إنما تشير إلى أهمية هـــذا العلم وفائدته وهذا ما سوف نعرض له فعلى بركة الله .

فائدة علم الكلام وغايته

بعد أن وقفنا على موضوع علم الكلام لدى المتقدمين والمتأخرين يتضح لنا ما يقوم عليه هذا العلم من أهداف ومقاصد ليس هذا فحسب بل وماله من غاية يسعى إليها هذا العلم المشتمل على جليل الكلام ودقيقة كما تبين فيما مضى هذا من ناحية ومن ناحية ثانية هو أن الباحث فى علم ما من العلوم لو لم يقف على فائدته وغايته والأهداف التى يجنيها من دراسته لكان طلبه إياه عبثا .

ولما كانت قضايا هذا العلم تدور حول معرفة الله تعالى وما يجب فى حقه وما يجوز وما يستحيل عليه ، وأيضا فى حق الرسل بالأدلة اليقينية ، ومن هنا فما لاشك فيه أن الإلمام بقضايا هذا العلم المشتمل على جليل الكلام ودقيقة يخرج الباحث فى قضاياه عن دائرة التقليد المنهى عنه شرعا حيث أمر الله عز وجل فى القرآن الكريم صراحة بوجوب النظر ، النظر فى الكون سمائه وأرضه وجباله وأنهاره ...أى فى السماء ومافيها والأرض وما عليها .

قال تعالى « قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض » (١) وقال تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » (٢) كما أمر القرآن الكريم بالنظر فى النفس الإنسانية أى أن ينظر كل إنسان فيما بين جنبيه أى فى نفسه قال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٣) .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٥

(٣) سورة الذاريات الآية ٢١

فهذه الآيات وغيرها كثيرة تدعو إلى النظر العقلى والتفكر والتدبر فى العديد من آيات الله المتلوة كما هى فى آيات الله المرئية ليخرج عن دائرة التقليد المنهى عنه شرعا وهذه هى الغاية الشاملة وهى كما عـــبر عنها الشيخ محمد عبده : القيام بفرض يجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل (١) لا إسترسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب ،فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه (٢) .

وعلى هذا يتضح أن فائدة هذا العلم ، إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية التفصيلية أو دفع شبه المعارضين لها أيضا بواسطة الأدلة العقلية التى تدحض حجج الخصم وتدفع شبهه ، ليس هذا فحسب بل ينتقل بعقيدة الإنسان من مرتبة التقليد إلى درجات اليقين ، وأيضا يقيم فى الإنسان الإخلاص فى الخلق والسلوك ومراقبة الله فى السر والعلن كما بين ذلك عضد الدين الإيجى أثناء تناوله للفائدة المرجوة من هذا العلم وأنها تتمثل فى النقاط التالية .

---

(١) والدليل الإجمالى على وجود الحق تبارك وتعالى واجب عينى — أما الدليل التفصيلى وتقريره ودفع الشبه عنه فهو واجب على الكفاية يرجع فيه لحماة العقيدة أى المتكلمين الذين انتدبوا أنفسهم للتفقه فى التوحيد والعمل على حفظ أصول بناء الدين فى ذات المسلم — راجع د/على جبر — محاضرات فى علم الكلام ص ٤٢

(٢) الشيخ محمد عبده — رسالة التوحيد ص ٢٢ ط ١ الشعب — القاهرة .

١ — الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان،قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العـــلم درجات والله بما تعملون خبير » (١) .

٢ — إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة والرد على المبتدعة والمنحرفين من أصحاب المذاهب الضالة .

٣ — حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

٤ — أن تبنى عليه العلوم الشرعيـة فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

٥ — صحة النيه والإعتقاد ، إذ بهما قبـول الأعمال وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين (٢) .

وهذه العبارة الشاملة من صاحب المواقف فى بيان ثمرة علم التوحيـد تفيد أنها إما راجعة إلى الدارس للعلم باخراجه من التقليد إلى اليقين وتصحيح نيته .

● وإما راجعة إلى غير الدارس ، فإن كان مسترشدا فقد أعانه هـذا العلم بإيضاح الطريق أمامه .

● وإن كان معاندا فقد الزمه بالحجة والبرهان .

كما ترجع الثمرة أيضا إلى تثبيت قواعد الدين بدرء الشبهات والأباطيل وعلى هذا فثمرة هذا العلم .

---

(١) سورة المجادلة آية ١١

(٢) الإمام عضد الدين الإيجى كتاب المواقف صـ٨ وراجع التهانوى كتابه كشاف اصطلاحات العلوم والفنون صـ ٢٣ وراجع الإمام الغزالى المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود صـ ٩٠

● إما راجعة إلى الشخص نفسه أو راجعة إلى غيره ، أو راجعة إلى قواعد الدين نفسها كما تبين فيما سبق .

أى أن الغاية التى وراء كل غاية إنما هى تحصيل السعادتين الدنيوية والأبدية كنتيجة طبيعية لتحصيل الإعتقادات الحقه والإدراكات المطابقة التى يجنيها بنو البشر إن شاء الله تعالى من دراستهم لعلم التوحيد ، وإذا كان الفوز بسعادة الدارين هو الغاية النهائية لعلم الكلام فقمة هذه الاعتقادات الحقه ومنتهاها هو الحق عز وجل قال سبحانه « وأن إلى ربك المنتهى » .

وعلى هذا فإنَّ لهذا العلم غاية تفضى إلى تلك الغاية النهائية وهى كما عبر عنها علماء الكلام فى قولهم السابق .

وبالوقوف على هذه الفوائد وتلك الغاية لا نبالغ إذا قلنا إن علم التوحيد يعتبر أهم العلوم بالنسبة لبنى البشر عامة وللمسلمين بصفة خاصة لأنه علم العقائد والتى هى الأصول التى يقام عليها بناء الدين فى ذات الإنسان .

وهذا يدعونا للوقوف على المنهج الذى يقوم عليه هذا العلم المشتمل على دقيق الكلام وجليله .

منهج علم الكلام :

وهنا تجدر الإشارة إلى أن علم الكلام شأنه شأن غيره من العلوم الإسلامية قد اتخذ من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة منطلقا من حيث المنهج ومن حيث الموضوع كما تبين فيما سبق .

فمن حيث المنهج : نجد القرآن الكريم قد اتخذ فى تقرير العقائد منهجاً يقوم على التكامل الشامل ، وذلك بتقرير ما ينبغى أن يكون ، ونفى ما لا ينبغى أن يكون ، بالمنهج العقلى القائم على المجادلة والمناظرة بغية الوصول إلى الحقيقة فى قضايا العقيدة الدينية وإبطال ما عداها ، وليست هذه دعوى بدون دليل ، فقد جاء فى القرآن الكريم ذكر المنهج الجدلى وكيفية استخدامه ، والمراد بأدلة القرآن الكريم هنا الأدلة العقلية التى يرد بها على الخصوم ويقرر بها القواعد الاعتقادية فى قضايا الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وذلك لما فى طريقته من إفحام للمعاندين وإلزام للمنكرين ، وإرشاد للمترددين ، وهدى للمتقين .

ومن هنا نجد القرآن الكريم قد حث على النظر والتدبر فى كثير من الآيات بطريق الأمر كقوله تعالى : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون(١) . وقوله تعالى : أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض(٢) . فهذه الآيات وغيرها كثير تدعو إلى النظر العقلى وهذا هو أساس المنهج الكلامى الذى أرسى قواعده الحق سبحانه وتعالى فى قوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين(٣) .

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٥ (٣) سورة النحل الآية ١٢٥

وقال تعالى : ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن (١) ـ هذا بالنسبة للذين يريدون منهم أن يستقيموا مع فطرتهم ويصلوا إلى الحق والحقيقة فى قضايا الدين والدنيا ، أما الذين لا يريدون الوصول إلى هذا ويقصدون من الجدل السفسطة والمغالطة والمكابرة بخلط الحق بالباطل والتشكيك فى قضايا العقيدة الدينية بقصد إخفاء الحقيقة فيها فالواجب استخدام الأسلوب المكافىء لهم فى الجدل وما ينبغى أن يكون عليه من قوة حجة وبرهان لبيان مناقضتهم مع فطرتهم وكشف معايبهم وصدق الله العظيم حيث قال فى نفس الموضع إلا الذين ظلموا منهم (٢) ». أى لاتجادلوهم بالحسنى والرفق واللين ، وإنما جادلوهم بسلاح يضاهى ويماثل سلاحهم لردعهم وبيان مجافاتهم لمنطق الحق .

ومن هنا نقف على أن منهج علم الكلام أقيم على مابنيت عليه قواعده كما يقول مؤلف رسالة التوحيد : جاء القرآن الكريم فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة ، منهجاً يمكن لأهل الزمان الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ...

إذ لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه أقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ومافيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيه لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه (٣) . ولهذا فلقد وضع القرآن الكريم للمنهج العقلى جانبين : —

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٦ (٢) السورة السابقة .
(٣) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٨ ط الشعب .

الأول : يتمثل فى الهدم . والثانى : يتمثل فى البناء .

أما الأول : فيتلخص فى تفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقم على اليقين أو التى قامت على مجرد التقليد أو الظن .

وأما الجانب الثانى : جانب البناء فيوضح فيه القرآن الكريم الأصول والقواعد التى تضمن للعقل الوصول إلى نتائج سليمة وتمكنه من تمحيص كل مايرد عليه من فروض أو قضايا .

ومجمل القول أن القرآن الكريم قد اتخذ فى تقرير العقائد منهجا واحداً ذا شقين أو وجهين أحدهما هدم العقائد المتوارثة والتى أضحت فى عالم المعتقد لا غذاء فيها للقلب والروح بل تتناقض وتتنافر مع الفطرة المستقيمة وثانيهما لبناء العقيدة الصحيحة التى تملأ جوانب النفس البشرية بالإيمان الصحيح (١) .

وعلى هذا استخدم علماء الكلام طرقا متعددة ترجع إلى القياس الأصولى للاستدلال على قضايا هذا العلم ، وهذه الطرق تكلم عنها صاحب كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد فقال :

إعلم أن مناهج الأدلة متشعبة وقد أوردنا بعضها فى كتاب محك النظر وأشبعنا القول فيها فى كتاب معيار العلم ، ولكنا فى هذا الكتاب نحترز عن الطرق المتغلغلة والمسالك الغامضة قصداً للإيضاح وميلا إلى الإيجاز واجتناباً للتطويل ونقتصر على ثلاثة مناهج :

---

(١) راجع دكتور محمد عبد الستار نصار المدرسة السلفية ص ٤٧٩ . ط الأولى ١٩٧٩ م

المنهج الأول : السبر والتقسيم :

والسبر هو الحصر ولذا فالسبر يسمى التقسيم وجملة القول أن نحصر الأمر فى قسمين . ثم نبطل أحدهما فيلزم منه ثبوت الثانى كقولنا : العالم إما حادث . وإما قديم ، ومحال أن يكون قديماً فيلزم منه لا محالة أن يكون حادثاً .

فقد أبطلنا أحد القسمين وهو قدم العالم فثبت الثانى وهو حدوث العالم إذ لا ثالث لها وهذا اللازم .

هو مطلوبنا وهو علم مقصود استفدناه من علمين آخرين :

— أحدهما قولنا : العالم إما قديم أو حادث . فإن الحكم بهذا الانحصار علم .

— والثانى قولنا : ومحال أن يكون قديماً . فإن هذا علم آخر .

— والثالث : هو اللازم منهما وهو المطلوب كما يقول الغزالى .

ولا علم مطلوب يمكن أن يستفاد إلا من علمين هما أصلان ، ولا كل أصلين ، بل إذا وقع بينهما ازدواج على وجه مخصوص وشرط مخصوص ، فإذا وقع الازدواج على شرطه(١) أفاد علماً ثالثاً . وهو المطلوب .

---

(١) أى لا بد فى الأصلين من وجود تناسق بينهما وتناسب بأن يكون الترديد فى المقدمة الأولى بين الشىء ونقيضه أو المساوى لنقيضه . .. إلى غير ذلك من الشروط المذكورة لهذا القياس فى المنطق . فلو قلت هذا الشخص إما عالم بالفقه وإما عالم بالنحو لم يكن بين الطرفين ترديد بين الشىء ونقيضه ، فلو أبطلت أحدهما لا يلزم منه إثبات الآخر .

حيث إن فى هذا السير ثلاثة علوم. علم بالمقدمة الأولى وهى الكبرى وعلم بالمقدمة الثانية وهى الصغرى ، وعلم ثالث هو النتيجة المستفادة من العلمين الأولين وهما أصلان لها والنتيجة فرع لهما .

وهذه النتيجة قد نسميها دعوى إذا كان لنا خصم . ونسميها مطلوباً إذا لم يكن لنا خصم لأنه مطلب الناظر . كما نسميها فائدة وفرعا بالإضافة إلى الأصلين فإنها مستفادة منهما .

وإذا أقر الخصم بالأصلين يلزمه لا محالة الإقرار بالفرع المستفاد منهما وهو صحة الدعوى .

المنهج الثانى :

وهو كما يقول أيضا صاحب كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد : أن نرتب أصلين على وجه آخر مثل قولنا كل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . فهذه مقدمة وهى أصل .

والأصل الثانى : العالم لا يخلو عن الحوادث .

فيلزم منهما صحة دعوانا وهى أن العالم حادث الذى هو النتيجة .

وهذا قياس حملى من الشكل الأول مركب من قضيتين حمليتين بينهما ملازمة تنتج قضية ثالثة متى سلمت المقدمتان .

وهنا يقول الغزالى : فتأمل وهل يتصور أن يقر الخصم بالأصلين ثم يمكنه إنكار صحة الدعوى فتعلم قطعا أن ذلك محال(١) .

ومعنى ذلك أنه متى أقر الخصم بالمقدمتين لزمته النتيجة رغما منه . نعم

---

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى .

للخصم أن ينازع فى كل مقدمة على حدة . أما لو سلم بالمقدمتين فلا يمكنه إنكار النتيجة .

المنهج الثالث :

وهو كما يقول الإمام الغزالى أن لا نتعرض لثبوت دعوانا بل ندعى إستحالة دعوى الخصم بأن نبين أنه مفضى إلى المحال ، ومايفضى إلى المحال فهو محال لا محالة .

ومعنى هذا أن الطريق الثالث هو ألا ندعى نحن دعوى ثم نقيم الدليل عليها . بل نجعل الخصم يدعى . ثم يقيم الدليل على دعواه . وهنا نقول له إن دعواك أيها الخصم مستحيلة لأنها تؤدى إلى مستحيل ، والمؤدى إلى المستحيل مستحيل وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(١) .

فمثلا لو ادعى الخصم تعدد الإله . فنقول له إن دعواك هذه يلزمها محال لأنه لو تعدد الإله لفسدت السموات والأرض . والفساد فيهما محال . فما أدى إليه محال . وهو التعدد فثبت نقيضه الذى هو عدم التعدد وهو المطلوب .

وهذا المنهج الثالث عبارة عن قياس استثنائى اتصالى ويتركب من مقدمتين الأولى وهى الكبرى شرطية متصلة والثانية وهى الصغرى وهى الاستثنائية الحملية وهذا القياس ينتج فى صورتين نفى التالى ينتج نفى المقدم ، وإثبات المقدم ينتج إثبات التالى .

فنى المثال السابق نفينا الفساد فانتفى التعدد وثبت نقيضه وهو عدم

---

(١) سورة البقرة الآية ١١١

التعدد وقد مثل الغزالى لهذا المنهج بقوله: إن صح قول الخصم إن دورات الفلك لا نهاية لها لزم منه صحة قول القائل : إن ما لانهاية له قد انقضى وفرغ منه . ومعلوم أن هذا اللازم محال فيعلم منه أن المفضى إلى المحال محال(١) . وبالعودة إلى كل ما تقدم فى قضية منهج علم الكلام ، نقف على ما أوقفنا عليه الإمام الغزالى وأنه منهج جلى فى الاستدلال على حقائق علم الكلام حيث يقوم الدليل النقلى والعقلى معا ، وإن استخدم بعض علماء الكلام المنهج العقلى بعيدا عن النص فإنه لا يتناقض معه ، بل الاستدلال بالعقل قائم فى دائرة البرهان الذى لا يتعارض مع الدليل(٢) ، وهذا مايشير

---

(١) الإمام الغزالى — الاقتصاد فى الاعتقاد

وراجع الدكتور عبدالحميد شقير فى تعليقه على الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٣

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق — التمهيد فى تاريخ الفلسفة ص ٢٩٤

والبيان نقول : هل البرهان هو الدليل ؟

قيل أنهما مترادفان بمعنى أن ما يطلق عليه البرهان يطلق عليه الدليل فهما متحدان فى المعنى وإن اختلفا لفظا .

كما أن البرهان أخص من الدليل لأنه يشترط فيه — أى البرهان أن يكون مركبا من مقدمات عقلية قطعية ، بخلاف الدليل فإنه يكون مركبا وغير مركب .

فنقول فى البرهان إذا أردنا أن نعرف أن «س» من بنى البشر يفكر ، أو لا يفكر فإننا نقيم البرهان التالى :

محمود إنسان . وكل إنسان يفكر

وهنا تكون النتيجة : محمود يفكر

فالبرهان هنا مركب من مقدمتين وهما عقليتان .

. . . .

= أما الدليل فقول مؤلف من قضايا يستلزم لذاته قولا آخر ، وهذا تعريف للدليل باعتبار أن المراد به البرهان .

وعلى هذا فالاستلزام الحتمى يكون فى المقدمات اليقينية إذ لاستلزام فى الظنيات ولا فى الوهميات ولا فى القياس الشعرى ...

والظن : هو إدراك الطرف الراجح .

والوهم : إدراك الطرف المرجوح .

والشك : إدراك الطرفين من غير ترجيح بينهما .

أما الحجة فهى فى اللغة تعنى الدليـــل المقرون بالمجادلة المقصود بها الوصول إلى الحقيقة من حاجة إذا جادله . وفى الإصطلاح فهى اما أن تكون نقلية أو عقلية والأولى ما كانت من الكتاب أو السنة أو الإجماع .

والثانية ما كونها وأقامها العقل وتتمثل فى الأقسام التالية :

أقسام الحجة العقلية :

١ — البرهان : وهو ما يتركب من مقدمات عقلية يقينية لإفادة اليقين .

٢ — الجدل : وهو ما تركب من مقـدمات مشهورة بين بنى البشر كقول القائل : هذا عدل وكل عدل حسن . والنتيجة . هذا حسن . أو هذا ظلم . وكل ظلم قبيح النتيجة هذا قبيح .

٣ — الخطابة : وهى ما تألفت من مقدمات مقبولة لدى السامعين من شخص يعتقد فيه الصلاح أى هى قياس تركب من قضايا ظنية وصادرة من شخص معتقد فيه .

٤ — الشعر : وهو ما تألف من مقدمات تؤثر فى النفس . =

إليه صاحب التمهيد فى قوله كان أهل السنة من قبل الأشعرى ، لا يعتمدون إلا على النقل فى أمور الاعتقاد ... فلما أخذ الأشعرى فى مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده ، يبنون عقائدهم بالعقل تدعيما لها ومنعا لإثارة الشبه حولها .

وهذا ما يقرره القاضى عبد الجبار ـ بعد أن يذكر الدلالات ويحصرها فى العقل والكتاب والسنة والإجماع ـ من أن معرفة الله تعالى لا تكون بالدليل النقلى وإنما تكون بالدليل العقلى[1] .

والمراد بالدليل العقلى ما يقوم فيه العقل بالاستدلال بجهد ذاتى يتبع فيه الطرق العلمية المنظمة، دون أن يستند إلى شيء من السمع . لأنه مركب من مقدمات عقليـــة مأخوذة من الكون . ولذا كان اللزوم بينها وبين المطلوب حاصلا بطريق العقل .

ومثاله : العالم متغير ، وكل متغير حادث .

ينتج : أن العالم حادث . فمقدماته عقلية مستنبطة من أحوال الكون وتقلباته بواسطة المشاهدة والملاحظة . والربط بينها وبين الحدوث بطريق اللزوم العقلى .

والمراد بالدليل النقلى: ما كانت جميع مقدماته أو بعضها نقلية مأخوذة من الكتاب أو السنة أو الإجماع .

والربط بينها وبين المطلوب طريقه النقل .

= ٥ ـ السفسطة : وهى المغالطة وتتألف من مقدمات وهمية كاذبة مثل هذا ميت . وكل ميت جماد . النتيجة : هذا جماد ،

وبهذا يتضح لنا الفرق بين الدليل والبرهان والحجة العقلية .

(١) شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ابن أحمد ص ٨٨ ط ١٩٦٥م الأولى .

وقد يعرف بتعريف آخر وهو دليل صح نقله عمن عرف صدقه عقلا وهم الأنبياء والرسل — عليهم الصلاة والسلام . وذلك كقولك الصوم واجب . وكل واجب يستحق تاركه العقوبة . فالصوم يستحق تاركه العقوبة فهذا مثال للدليل الذى جمع مقدمات نقلية .

وأما الثانى : فمثاله الوضوء عمل ، وكل عمل يكون صحيحا شرعا ، إذا وافق الوارد . . . فالوضوء يكون صحيحا شرعا إذا طابق الوارد .

أى ما يكون مستندا إلى خبر فى الكتاب أو السنة(١) .

ويمنع القاضى عبد الجبار إثبات العقائد بالدلالة النقلية لأنها فرع على حجة العقل . فلو استدللنا بشىء منها على الله والحال هذه كنا مستدلين بفرع الشىء على أصله ، وذلك لا يجوز(٢) . وبعد هذا يبين لنا الميادين التى يجب أن يخوضها العقل مستقلا وهى معرفة الله بتوحيده وعدله وذلك بأن ينظر بعقله فى : الكون وما فيه أى الحوادث ليعرف أنها محدثة ، وأنه لا بد لها من محدث مخالف لها وهو الله .

ثم فى صحة الفعل منه ليعلم كونه قادرا .

وأن فعله محكم ليعلم كونه عالما .

ثم ينظر فى كونه عالما وقادرا ليدرك كونه موجودا .

ثم ينظر فى أن الحوادث تنتهى إليه وهو لا ينتهى إلى أحد ليعلم كونه قديما وأنه ليس بجسم ولا عرض .

وأنه غنى غير مفتقر لغيره .

---

(١) راجع الدكتور على جبر — المرجع السابق .
(٢) راجع القاضى عبد الجبار — المرجع السابق .

وأنه لا يرى بالأبصار .

وأنه واحد .

وأنه عدل حكيم .

وبهذا يحصل جملة علوم التوحيد والعدل(١) .

وعلى هذا يتضح لنا ما وقفنا عليه بين منهج القرآن والمناهج الأخرى كالتى التزمها المتكلمون فى إثبات العقائد إذا ما قارنا بينهما .

فمثلا يستدل متأخروا المتكلمين على إثبات الصانع بمقدمات عقلية ، رأو أنه لا يمكن للإنسان أن يبرهن على إثبات الصانع إلا إذا عرفها وأطلقوا على ذلك اسم المطالب .

وهى تتمثل فى :

١ — أن العالم جواهر وأعراض ، وأن العرض شىء يزيد على الجوهر ، كشأن الحركة مع الجسم .

٢ — أن العرض لا يقوم بنفسه .

٣ — أن العرض لا يكمن فى محله حتى يرد على محله عرض يضاده .

٤ — أن العرض لا ينفك عن محله .

٥ — أن القديم لا ينعدم .

---

(١) المصدر السابق للقاضى عبد الجبار ص ٦٦ وراجع دكتور يحيى هاشم — مداخل إلى العقيدة .

٦ — أنه ليس هناك حوادث لا أول لها(١) .

وأصبحت تلك المطالب تتأصل كأساس يقبون عليه قواعدهم وما نريد أن نبرزه من ذلك هو أن المتكلمين وبخاصه المعتزلة والأشاعرة — اشترطوا فى طبيعة المعرفة فى الاعتقاديات التى هى ميدانهم أن تكون فى مرتبة العلم بمعناه الاصطلاحى ، أى ما يفيد اليقين ، ولا يحتمل معه النقيض ، وهم من ثم رأوا أن الدليل العقلى هو الذى يحقق لهم هدفهم النهائى وهو نصرة الدليل السمعى(٢) ، إذا لأمور التى يشتمل عليها هذا العلم ويجب اعتقادها إما أن تكون بعيدة عن العقـــل ، والعقل لو خلى ونفسه لم يحكم عيها بنفى أو إثبات مثل الجنة والنار والصراط والثواب والعقاب ، فهذا الجانب لا يثبت إلا عن طريق النقل وإما أن يتوقف النقل على إثباته بالعقل مثل وجود الله وكونه قادرا عالما ومرسلا للنبى بالمعجزة .

فهذا الجانب لا يثبت إلا بالعقل ، وإنما كانت صحة النقل متوقفة علية لأنهـا تتوقف على صـدق المخبر وصدقه يتوقف على ثبـوت نبوته بإظهار المعجزة . وإظهارها يتوقف على وجود الصانع وكونه عالما قادرا على المعجزة على وفق دعواه وكونه مختارا يصطفى من عباده من يصلح للنبوة .

ومن هنا كانت الأدلة العقلية ركائز علم التوحيد لأن بها إثبات القادر الخالق وباقى الصفات الكمالية ليس هذا فحسب بل ونفى الأمور التى لا تليق

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار المدرسة السلفية ص ٢٨٦ ومـا بعدها

(٢) راجع الدكتور يحى هاشم — مداخل إلى العقيده الإسلامية . ص ١٠٠

بالله تعالى . وأما الأدلة النقلية فهى موقظة للعقل لأن يتدبر ويستنتج . وباقى الأمور الاعتقادية التى لا مجال فيها للنظر العقلى تثبت بطريق النقل كما قلنا فالواجبات كالصلاة والحج .. والأمور الغيبية مثل الملائكة والجن واليوم الآخر وما فيه كل ذلك طريقه النقل(١) .

وهكذا يتضح أن بناء منهج علم الكلام يقوم على الاستدلال بالنقل والعقل معا ، وأنه وثيق الصلة بمصدر الدين نفسه .

---

(١) راجع دكتور على جبر المرجع السابق

الحكم وأقسامه

وبعد هذا البيان لعلم الكلام وموضوعه .. والغاية التي يجنيها بنو البشر من دراسته نعود لتناول ما وعدنا به فيما تقدم حول بعض المصطلحات والمقدمات التي ينبغي الإلمام بها قبل تناول قضاياه .

الحكم في اللغة : هو المنع ، ومنه سمى الحاكم حاكما لأنه يمنع الظالم من ظلم المظلوم ، فكل من منعته من شيء فقد حكمته وأحكمته(١) .

قال تعالى : فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق(٢) .

والحكم في اصطلاح العلماء : هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه أي إسناد أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا(٣) .

ويتضح من هذا التعريف الاصطلاحي للحكم أنه يقتضي وجود أمرين كل أمر منهما قائم بذاته ، وله مدلوله الخاص به هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أن معنى الحكم يقتضي إثبات أحد الأمرين للآخر أو نفيه عنه . مثال ذلك قولنا : العالم متغير . في هذا القول معنا أمران .

— الأمر الأول : هو لفظ العالم .

— والأمر الثاني : هو لفظ متغير .

---

(١) ابن منظور لسان العرب ج ٢ ص ٩٥٣ ط دار المعارف
(٢) سورة المائدة الآية ٤٨
(٣) الشريف الجرجاني التعريفات ص ٩٢ ط الأولى ١٩٨٢ م

والحكم هنا يقتضى إثبات الأمر الثانى للأمر الأول .

فنقول : العالم متغير . أو نفى الأمر الثانى عن الأول فنقول . العالم ليس متغيرا . كما نقول : مسيلمة ليس رسولا ... ويفهم من ذلك أن الحكم إما إيجابى يفيد الثبوت وإما سلبى يفيد النفى ، فنحن فى القضية الأولى حكمنا بثبوت التغير للعالم ، وفى القضية الثانية حكمنا بنفى التغير عن العالم .

وفى القضية الثالثة حكمنا بسلب الرسالة عن مسيلمة .

والأمثلة خلاف ذلك كثيرة كقولنا الله واحد ، ومحمد رسول الله والكعبة قبلة المسلمين ، وليس مسيلمة رسولا ، وزيد ليس بناجح .

فقد حكمنا فى الشق الأول من هذه الأمثلة بثبوت الأحدية لله تعالى وبثبوت الرسالة لسيدنا محمد — ﷺ — وبثبوت القبلة للكعبة أول بيت وضع للناس ، كما حكمنا بسلب الرسالة عن مسيلمة وبسلب النجاح عن زيد وهكذا فالحكم إما ثبوتى يفيد الإثبات وإما سلبى يفيد النفى، وقد يسأل سائل فيقول : ما هى أقسام الحكم . ؟

والجواب : أن الحكم يشتمل على أقسام متعددة تتمثل فى النقاط التالية .

أقسام الحكم مطلقا :

ينقسم الحكم مطلقا إلى ثلاثة أقسام

(١) شرعى (٢) عادى (٣) عقلى

والحكم الشرعى ينقسم إلى قسمين

١ — تكليفى ٢ — وضعى

والحكم العقلى ينقسم أيضا إلى ثلاثة أقسام

١ — واجب ٢ — جائز ٣ — مستحيل

كما ينقسم كل من أقسام الحكم العقلى إلى ضرورى ونظرى .

أولا — الحكم الشرعي : وهو ما نستند في إصداره إلى الشرع ، أي إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه مستندين في ذلك إلى ما جاء به الشرع وهو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الوجوب أو التحريم أو الكراهة أو الندب أو الإباحة كما تبين فيما سبق(١).

وينقسم الحكم الشرعي إلى قسمين حكم تكليفي وحكم وضعي .

— أما الحكم التكليفي : فهو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين من حيث أنه يأمرهم بشيء أو ينهاهم عن شيء آخر وذلك كقوله تعالى : في آيات القرآن الكريم أقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة . كلوا وأشربوا ولا تسرفوا . لا تقربوا الزنا ، لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق .

فإن هذه الأمور التكليفية قد خاطبنا الله بها في آيات القرآن الكريم آمرا لنا بها أو ناهيا لنا عنها في جانبي الاعتقاد والعمل.

— والحكم الوضعي : وهو أن يجعل الشارع الشيء سببا في حصول شيء آخر أو شرطا لحصوله وذلك مثل: زوال الشمس ظهراً فإنه سبب في وجوب صلاة الظهر ، وغروب الشمس سبب في إفطار الصائم ، ومثل الطهارة فإنها شرط في صحة الصلاة ، والحدث الأصغر أو الأكبر يمنع من صحتها.

ثانيا — الحكم العادي : وهو ما نستند في إصداره إلى ما تعودناه . وألفناه نتيجة الملاحظة والتجربة والتكرار كتمدد الحديد بالحرارة . . . ويتبلور الحكم العادي في أنه إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بناء على الملاحظة

---

(١) راجع فيما تقدم الحديث عن أحكام الدين العملية وراجع حاشية الدسوقي على شرح أم البراهين الصغرى للسنوسي ص ٤١ . وأنظر حاشية الشرقاوي ص ٢٣

والتجربة مثل وجود الإحراق عند وجود النار، فالخالق للإحراق حقيقة هو الله تعالى والتأثير له تأثير للنار فى الإحراق، وإنما جرت العادة عند التقاء النار للمواد القابلة للإشتعال فإن عملية الاحتراق تحدث . ومن هنا فالأسباب جميعها عادية لاتأثير لها فى الغير بذاتها، لأن المؤثر فى الأشياء جميعها الله وحده . وإنما يجرى الله العادة بأن يخلق الفعل عندها .

وعلى هذا فالحكم العادى غالبى الوقوع، على معنى أن يصدق غالبا، ولكنه قد يكذب ولايتحقق لتخلف العادة وعدم اضطرادها، ولذلك يصح أن توجد النار والجسم القابل للاشتعال، ولايخلق الله الإحراق فلا يحصل الاحتراق . وأيضاً كقولنا : الضوء الأحمر على الطريق يدل على الخطر فقد يكذب ذلك ويكون هناك ضوء أحمر على طريق — ما — وليس ثمة خطر وهكذا .

ثالثا — الحكم العقلى : وهو مانعتمد فى إصداره على العقل وحده أى هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بناء على مقتضيات العقل المجرد أى على التفكير بدون توقف على شرع ولاملاحظة ولا تكرار .

وذلك كقوله : الله موجود . لا إله إلا الله . الضدان لايجتمعان . والأب أكبر من الابن . ..

فإن هذه الأحكام يمكن للعقل أن يكشف للنفس عن إدراكها من غير أن يعتمد على شىء سواه .

وعلى هذا فالأمر المعلوم الذى يحصل لدى العقل البشرى ينحصر فى أقسام الحكم العقلى، والتى هى الوجوب والاستحالة والجواز .

وقبل البيان لهذه القضايا التى يقام عليها بناء الدين فى ذات الانسان ينبغى أن نقف على ما يجب على المكلف أن يعرف من العقائد وما ذلك إلا لأهمية القضية التى نحن بصدد الحديث عنها .

— يجب على المكلف أن يعرف مايجب لله تعالى ومايستحيل ومايجوز عقلا ، وكذلك مايجب للرسل ومايستحيل ومايجوز عقلا ، أى عليه أن يعرف أصول بناء الدين فى ذاته كما أشرنا إلى ذلك من قبل وعلى هذا فمعرفة أصول بناء الدين فى ذات الإنسان واجبة بالشرع — والعقل مؤيد للشرع على أنه قبل إرسال الحق تبارك وتعالى — للرسل ونزول شرع الله تبارك وتعالى لايجب شىء؟. وإن كان المعتزلة يقولون: إن العقل قادر على أن يعرف ، حسن الأشياء وقبحها عقلا ، ويمكنه أن يستقل بمعرفة الأحكام فى المصالح ، وذلك مبنى على أن الأشياء تعرف بالحسن والقبح لذاتها ، والشرع إنما جاء مقويا للعقل مذكرا له .

— والأشاعرة يقولون: إن معرفة الحسن والقبح إنما تدرك وتعرف بالشرع أولا وقبـــل كل شىء ، ولا تتصف الأشياء بحسن أو قبح لذاتها .

وعلى هذا وذاك يتضح أن المقصود هو أن الشرع يوجب على المكلف أن يعرف مايجب ومايستحيل ومايجوز عقلا لله تعالى ولرسله عليهم السلام ليس هذا فحسب بل وبقية العقائد التى يجب الايمان بها ، يعرف ذلك كله ولو بدليل إجمالى يخرج به المكلف من دائرة التقليد إلى دائرة الإيمان اليقينى فقد أمرنا الله تعالى أن نعلم أصول الدين قال تعالى : فأعلم أنه لا إله إلا الله(١) . والعلم بلا إله إلا الله يشمل ما نحن بصدده كما قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل النـــاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله(٢).

---

(١) سورة محمد الآية ١٩

(٢) الحديث متفق عليه .

ومن هنا يتضح أن الشرع يوجب على المكلف أن يعرف ما يجب وما يستحيل وما يجوز عقلا لله تعالى ولرسله عليهم السلام .

وعلى هذا تتضح حدود المعرفة التى يصير الإنسان بها مؤمنا إيمانا صحيحاً وأنها الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل فالمعرفة غير الجازمة معرفة مرفوضة ، وصاحبها لا يعتبر مؤمنا ، لأن العقيدة مبنية على الجزم واليقين ، فلا يعتبر مؤمنا من كان واهما أو شاكا أو ظاناً ولا يعتبر مؤمناً من جزم بعقيدة مخالفة للفطرة والتوحيد ، كاعتقاد قدم العالم ، أو أن القيامة واليوم الآخر لن يوجدا مستقبلا .

ويعتبر مؤمنا عاصيا من عرف الله تعالى واعتقد وجوده وصفاته ولكنه لا يعرف دليلا على وجود الله ، مع استطاعته النظر ومعرفة الدليل ، ولو إجمالا كأن تقول له ما الدليل على وجود الله ؟

فيقول : الدليل على ذلك وجود هذا العالم مثلا .

فالدليل الإجمالى فرض عينى على جميع المكلفين ، أما الدليل التفصيلى فإنه فرض على البعض ، وذلك بمعنى أنه إذا قام به البعض سقط عن باقى الأمـــة .

وبعض العلماء يرى أن إيمان المقلد ، وهو المؤمن بغير دليل إجمالى ولا تفصيلى إيمان مقبول وصحيح إذا حصل منه الجزم بالعقيدة بحيث لا يتردد فيها ولا يتزحزح عنها ولو تردد وتزحزح الإنسان الذى أعتمد عليه المقلد فى عقيدته وتقليده .

ودليلهم على ذلك أن النبى — ﷺ — كان يقبل إيمان من يؤمن بدون سؤاله عن الدليل : وذلك ثابت فى كثير من الأحاديث الصحيحة (١).

---

(١) راجع الأستاذ حسن أيوب تبسيط العقائد الإسلامية — وسوف نتناول الحديث فى هذه القصة بالتفصيل فيما بعد .

وعلى هذا فإذا أردنا أن نحكم على شيء حكما عقليا ، فإننا نحكم عليه بواحد من ثلاثة أحكام ، لأننا إما أن نحكم عليه بالوجوب أو الاستحالة أو الجواز .

وهنا يطرأ سؤال ، مامعنى كون الوجوب والجواز والاستحالة حكما عقليا ؟ .

ومعنى ذلك أنها لازمة لحكم العقل لا تنفك عنه أى لا تقبل التخلف ولا الانفكاك فقولنا مثلا ، الله قادر ، الله عالم ... النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، قضايا لا تقبل أحكامها التخلف ولا تتغير ، كما تختلف الأحكام العادية وتتغير ، فإننا نرى أن العادة قد جرت بوجود الصحة عند تردد الطفل على الطبيب ، ومع ذلك فقد توجد الصحة كاملة من غير تردد الطفل على الطبيب ، وكذلك الأحكام الشرعية الفرعية قد تتخلف بسبب كما فى جواز عدم الصوم للمريض والمسافر والحامل وغير ذلك .

ولكن ليس معنى ذلك أن الأحكام العقلية تثبت بالعقل فقط دون الشرع ، كلا فإن نصوص الشرع الشريف قد أتت بأصول الدين وكشفت للعقل الإنسانى عما خفى عليه وقصر عن إدراكه (١) .

وهنا يدرك القارىء أننا نسبنا الوجوب والجواز والاستحالة إلى العقل ، فالعقل الإنسانى إذا هو الذى يبحث ، وهو الذى يحكم وعلى أساس حكمه تبنى النتائج ، فلا مجال هنا فى إثبات قضايا العقيدة والإيمان للتقليد ولا للعادات ولا للأهواء وإنما المقام والمجال مقام ومجال العقل السليم المتوائم مع الفطرة والتوحيد ، وسوف يتضح فى مسيرتنا مع هذا

---

(١) راجع دكتور / عوض الله جاد حجازى فى العقيدة الإسلامية والأخلاق بالاشتراك ص ١٨ ط ١٩٧٢ م .

العلم أننا نستدل بآيات من كتاب الله تعالى ، فلا يقال ولا يستطيع أحد أن يقول : كيف تستدلون بكتاب الله تعالى على قضايا قرر ثم أن العقل هو الحكم فيها ؟ . لأننا نقول : إننا نستدل بكتاب الله تعالى فيما يعرضه علينا من آيات ندركها فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور تحرك عقولنا وتفتح لنا مجالات البحث والمناقشة والحوار ، ثم نترك الحكم على النتائج للعقول المستقيمة فكتاب الله لنا هو النور الذى يشع فندرك به السبيل ونعرف جوانب الطريق ومعالمه ، فهو الهدى للضالين ، والفيصل فى قضايا الخلق أجمعين (١) .

وعلى هذا فقد ورد فى الشرع أمور من مسائل العقيدة تهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وتسلك به طريق الحق والهدى ،ولولا ماجاء به الشرع الشريف من البينات والهدى فى أمور العقيدة والتوحيد لارتكس العقل وضل عن الطريق المستقيم ، فعدم وجود الشرع والوحى كما قلنا يجعل للناس العذر ، ويسقط عنهم التكليف قال تعالى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وقال جل شأنه « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزا حكيما (٢) .

وقال تعالى : ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله ، لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »(٣) .

بل إن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد جاءوا بما تحار فى إدراك حقيقته العقول ، وتعجز عن فهم حقيقته الأفكار .

وذلك كسؤال الميت فى قبره ، وتنعيمه وتعذيبه فيه ، وحياة أهل

(١) راجع الأستاذ حسن أيوب المرجع السابق .

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥ (٣) سورة طه الآية ١٣٤

النار فى النار ، ولكنها أمور لا تحيلها العقول ، ولا تقوى على إبطالها الأفكار ، ولا تجد عندها من الأدلة المقنعة ما يردها أو ينقضها ، وإن العقول الإنسانية اليوم قد وصلت تبيسير الله لها ، وهدايته إياها إلى ما يصدق هذا وأمثاله مما جاءت به الرسل ، بل إنها قد وصلت إلى أمور سبق أن أنكرتها كحادث الإسراء والمعراج للرسول ﷺ فلقد سخرت الإنسانية من هذا الحادث ، ورمت صاحبه بالخيال والجنون والبعد عن الإدراك الصحيح ، مع أنها قد وصلت اليوم إلى ما يؤيد ما تنكره من استخدام للطائرات والصعود للقمر وسفن الفضاء التى تنقل الإنسان من مكان إلى آخر فى دقائق معدودات .

ومن هنا فالعجز عن معرفة حقائق الأشياء والقضايا لا ينفى وجودها لعجزه عن إدراكها ولم يكن إنكارها قديما إلا لأنها أمور لم تقع تحت حسها ولم تكن من مألوفها ومعهوداتها ، لذلك يجب على بنو البشر أن أن يعترفوا بقصور العقل ، وأن يقروا بأن لإدراكه حدوداً لا يتعداها ، وغاية يقف عندها .

ووجب عليهم كذلك أن يؤمنوا بما صح من وحى الله تعالى لرسله ، ويسلموا بكل ماجاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن إتهموا فليتهموا عقولهم بالقصور والتقصير .

قال تعـالى : سنريهم أياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط »(١) .

وعلى هذا فإن حجب الإنسان عن إدراكه لهذه الأمور اتباعه لهواه وبعده عن الفطرة والتوحيد لجهالة قائمة بذاته ، أو غرض يسعى إليه ثم جادل بالباطل ليدحض به الحق «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا»(٢) .

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٤ (٢) سورة الأسراء الآية ٨١

وقال تعالى : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، (١) .

وبعد هذا البيان فما المقصود بالواجب والجائز والمستحيل ؟ المقصود بالواجب والجائز والمستحيل .

أن العقل إذا لم يتأثر بمؤثرات خارجية كانت له أحكام ثابتة لا تقبل النقض على معنى أن مخالفة هذه الأحكام تعتبر وقوعا فى التناقض فمثلا قولنا : واحد وواحد يساوى اثنين ، وهذا حكم ثابت لا يمكن مخالفته إذا استقام العقل مع الفطرة ، فإذا قال : قائل فى هذه القضية السابقة واحد وواحد يساوى ثلاثة أدرك العقل بمنطق الفطرة الوقوع فى التناقض .

ومن هنا حاول العلماء تقسيم أحكام الحكم العقلى هذه وتعريف كل حكم منها تعريفا مساويا للمعرف .

١ — فالواجب (٢) : هو الأمر الثابت الذى لا يقبل الانتفاء أصلا لذاته من حيث هى (٣) . وذلك مثل ثبوت الوجود لله تعالى وسائر

---

(١) سورة الجاثيــة الآية ٢٣ وراجع دكتور عوض الله حجازى المرجع السابق .

(٢) وللإيضاح نقول الوجوب فى اللغة : الثبوت نقول وجب الأمر إذا وقع وثبت قال تعالى : فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها سورة الحج الآية ٣٦

(٣) وعلى هذا فالواجب هو ما لا يتصور فى العقل عدمه لأن الوجود من لوازم الماهية، وسلب اللازم إنما يكون بسلب الماهية ، وسلب الماهية عن نفسها باطل . راجع دكتور على جبر محاضرات فى علم الكلام ص ٢٤

صفات الكمال من علم وقدرة وإرادة ... فكل هذه الصفات ثابتة لله سبحانه وتعالى لا تقبل الانتفاء مطلقا .

أحكام الواجب : مما تقدم يتضح أنه من أحكام الواجب لذاته أنه موجود ، ووجوده قديم وباق ومستمر من الأزل إلى الأبد وعلى هذا فهو مخالف لجميع الحوادث ومن هنا فهذا الوجود وما يتبعه من صفات إنما هو لازم لذات الواجب لا لشيء آخر . أي لا يكون واجبا لغيره لأن الواجب لذاته يلزمه عـــدم الاحتياج إلى الغير والواجب لغيره يلزمه الاحتياج في الوجود إلى الغير وهـــذا تناف في اللوازم يلزمه تنافي الملزومات .

فالواجب لو لم يكن موجودا لكان معدوما ، ولو كان معدوما لم يكن واجبا . وهذا تناقض .

ولو لم يكن وجود الواجب مستمرا وباقيا لطرأ عليه العدم ، ولو طرأ عليه العدم ما كان ثابتا وهذا خلف .

ولو لم يكن وجود الواجب لذاته لكان لغيره ، ولو كان كذلك لكان معلولا لغيره ، والواجب علة كل شيء ولا علة له .

ومن هنا فلا يكون مركبا من أجزاء خارجية أو ذهنية لأن المركب يلزمه الاحتياج إلى كل جزء وإلى غيره وهذا محال بالنسبة للمستغني بذاته عن الغير مطلقا جزءا أو فاعلا فكما قلنا إنه علة كل شيء ولا علة له (١) .

---

(١) راجع الإمام الشيخ محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٩ ط الشعب وراجع دكتور علي جبر محاضرات في علم الكلام .
وراجع دكتور محمود محمد مزروعة دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٦ ط ١٩٧٢ م

وبعد هذا البيان فالواجب العقلى هو الأمر الثابت الذى لا يتصور العقل إنتفاءه وهو قسمان : ضرورى بدهى ونظرى .

أما الضرورى . فهو الذى لا يحتاج فى الوقوف عليه إلى استعمال الفكر أو الذهن فى تصوره وإثباته ومعنى هذا أنه يدركه كل إنسان بغير نظر واستدلال مثل صغر الابن فى السن عن أبيه وكو الواحد أقل من الاثنين والاثنين أقل من الثلاثة وهكذا فى العدد وأيضا كإثبات التحيز للجوهر أى أخذه قدرا من الفراغ وهو المكان، فإن الجوهر مادام موجودا يجب أن يشغل حيزا من الفراغ .

وأما النظرى : فهو الذى يحتاج إلى استعمال الفكر والتأمل لإدراكه وإثباته . أى يصل الإنسان إليه بعد النظر والتفكير مثل إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وجميع صفاته الكمالية .

ثانيا : المستحيل : وهو الأمر المنفى الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته من حيث هى وإنما العقل يخترع له صورة للحكم عليه كقول الملاحده بوجود شريك للبارى وكالجمع بين النقيضين أو رفعهما أو الجمع بين الضدين كأن يكون الشىء أسود وأبيض فى أن واحد أو أن يكون الشىء ساكنا ومتحركا فى وقت واحد فذلك كله يستحيل أى لا يتصور فى العقل وجوده وهو أيضا ينقسم إلى ضرورى ونظرى .

فالأول : أى الضرورى : هو الذى لا يحتاج إلى التأمل ولا استعمال العقل مثل وجود الضدين كالحياة والموت والنور والظلمة ،والحق والباطل والخير والشر ... فى محل واحد وفى زمان واحد .

والثانى : أى النظرى وهو الذى يحتاج إلى استعمال الفكر وقيام الدليل

كالادعاء بوجود الشريك بالنسبة لله تعالى ومثل خلو الجرم من الحركة والسكون معاً(١).

وعلى هذا فأحكام الأمر المستحيل تتمثل كما يتضح من التعريف أنه لا يقبل الوجود أبدا، لأنه لو طرأ عليه الوجود لم يكن مستحيلا. وذلك خلف، ولأن العدم لازم له، فلو سلب العدم عنه بالوجود للزم سلب الشيء عن نفسه وذلك باطل(٢)، وإطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فإن المعلوم حقيقه لا بد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما نراه فى أحكامه وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه، ومن هنا فالأمر المستحيل لا يوجد أى ممتنع الوجود ومثاله الجمع بين النقيضين (٣).

ثالثا: الجائز أو الممكن: وهو ما يحتمل الوجود والعدم لذاته. وذلك مثل العالم المنظور الذى نعيش فيه وما يشتمل عليه من أرض وسماء وإنسان وحيوان ... وبالنظر إلى هذا العالم وما فيه نجد أنه كان معدوما ثم أوجده الله قياساً على الإنسان نفسه قبل وجوده، وهكذا كل الموجودات فإنها كانت معدومة ثم قبلت الوجود، وأيضا تقبل العدم بعد ذلك، أى يفنيها الخالق ثم يعيد منها ما شاء وبذلك يتضح أن العالم وما فيه قد جرى عليه العدم والوجود فهو إذن يحتمل كلاهما وهذا هو

---

(١) أنظر حاشية الصاوى على شرح الخريدة ص٢٩ ط ١٢٢٨هـ وراجع أم البراهين الكبرى للسنوسى

(٢، ٣) أنظر الشيخ أحمد التابعى مرشد الخلق إلى طريق الحق ص ٩٠ وراجع دكتور محمود محمد مزروعه المرجع السابق ص ٢٦

الممكن أو الجائز أى الذى يصح فى العقل وجوده تارة وعدمه أخرى كنزول المطر وخلق الإنسان فلا وجود له ولا عدم من ذاته .

ويتقسم إلى ضرورى ونظرى :

أما الأول : فهو الذى لايتوقف فى إدراكه إلى تأمل وتفكر وقيام الدليل (١) . وهـــذا بخلاف النظرى فإنه يحتاج إلى ذلك كما وقفنا على ذلك .

وعلى هذا فأحكام هـذا القسم من أقسام الحكم العقلى تتمثل فى أنه يقبل الوجود والعدم لذاته ، ومن هنا يتضح أن هناك الممكن الموجود وهناك الممكن المعـــدوم ، كما يتضح أن التغير ثابت لهما معا ، حيث إن الممكنات الموجودة لا تثبت ولا تدوم ، والمعدومة يطرأ على بعضها الوجود لأنه لايوجد إلا بسبب ولا يعدم أيضا إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته فنسبتهما إلى الذات سواء ، فإن ثبت له أحدهما بلاسبب لزم رجحان أحد المتساويين بلامرجح وهو محال .

أي أن هذه الأحوال التي تطرأ على الأمر الممكن لا تطرأ من ذات الأمر الممكن ، وإنما لسبب خارجي ، لأنه لابد من مرجح يرجح أحد الأمرين المتساويين على الآخر ، وهذا المرجح هو الخالق سبحانه وتعالى الذى يمنحه الوجود . الذي به يكون حادثا لأنه لايوجد إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده .

---

(١) راجع أم البراهين الصغرى ص ٤٤ وراجع دكتور محمد السيد مبارك علم التوحيـــد ص ١٤٠ وراجع الإمام الشيخ محمد عبده رسالة التوحيد .

والأول باطل لما يلزم عليه تقـــدم المحتاج على المحتاج إليه ، وهو إبطال لمعنى الحاجة ، كيف وقد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

والثانى : باطل أيضا وإلا لزم تساويهما فى رتبة الوجود فالحكم بأن أحدهما مؤثر والثانى متأثر ترجيح بلا مرجح .

فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم فيكون حادثا فكل ممكن حادث (١) .

الواجب والمستحيل بالغير :

وقفنا فيما تقدم على أقسام الحكم العقلى والتى هى الوجوب والجواز والاستحـالة وقد أتضح فى تعريف كل منها لفظة لذاته إذ الواجب هو الموجود الذى يمتنع عـدمه أمتناعاً ، ليس الوجود من غيره ، بل من نفس ذاته ، فإن كان وجوب الوجود لذاته سمى وجبا لذاتة ، وان كان لغيره سمى واجبا لغيره (٢) .

فالواجب : هو الذى لايقبل الانتفاء لذاته .

والمستحيل : لايقبل الثبوت لذاته وذلك إحترازا عن اللبث بينه وبين الواجب لغيره والمستحيل لغيره .

---

(١) دكتور على جبر محاضرات فى علم الكلام ص ٢٣ والشيخ محمد عبده رسالة التوحيد ص ٢٧

(٢) راجع التعريفات للجرجانى ص ٢٤٩

فالأول منهما : أى الواجب لغيره :

هو الجائز فى ذاته الذى تعلقت إرادة الله تعـالى بوجوده ، فأصبح وجوده واجبا لا لذاته ، بل لتعلق إرادة الله به ومن هنـا فإنه فى هذه الحالة يستحيل عدمه مع أنه فى ذاته ممكن يحتمل الوجود كما يحتمل العدم . مثل وجود القارىء لهذا العلم والكاتب الذى يسطره ، فالقارىء والكاتب هما فى حد ذاتهما ممكنان أى يحتمل كل منهما الوجود كما يحتمل العدم ولكن لما أراد الله تعالى وجودهما على هـذه الصفة المعينة أصبح وجودهما حتما ولازما . وهذا الحتم واللزوم لا لذاتهما ، بل بأعتبار تعلق علم الله تعالى بذلك ، ولذلك يسمى هـذا الوجود بالنسبة لهما واجبا بالغير أو واجبا لغيره ، وكما إذا أراد الله أن يكون لك ابن صالح . فإن وجود هذا الابن فى حد ذاته أمر ممكن ولكن لما تعلق علم الله تعالى بوجوده صار أمراً واجبا بالغير .

وأما الثانى : وهو المستحيل لغيره :

فهو نقيض الأمر الأول أى الواجب لغيره لتعلق إرادة الله بعدمه ، فيسمى المسحيل بالغير مثل إذا علم الله أنك ان تنجب أنثى فإن إنجابك أنثى فى حد ذاتة أمر ممـكن ولكن لمـا تعلقت إرادة الله وعلمه بعدمه صار أمرا مستحيلا بالغير وأيضا مثل عدم وجود ابن لك فى هذا الوقت لعدم تعلق إرادة الله بالوجود وأيضا مثل استحالة موتك الآن فى هذه اللحظة لتعلق علم الله تعالى بوجودك عشرين سنة أخرى . وعلى هذا فالأمر الجائز أو الممكن ينقسم إلى قسمين: ماهو موجود منه فهو واجب الوجود لغيره ، وما هو معدوم فهو مستحيل الوجود لغـيره لتعلق إرادة الله بكل منهما أى بوجود ما هو موجود وأيضا بعدم ما هو معـــدوم فهو مستحيل الوجود لغيره وليس هنـاك شىء من الممكنات أو الجائزات خارج عن

هذين القسين . وهذا القسم بنوعيـــة هو المهم فى دراسة علم العقيدة ، ويتوقف عليه الكثير من مسائلها فوجود الله واجب عقلا ، وإرسال الرسل جائز عقلا ، والشريك للبارى مستحيل عقلا .

والحديث فى هذا المقام يدعونا للوقوف حول قضية المعرفة والتقليد . وما هو أول واجب على المكلف ؟

فعلى بركة الله تعالى نبدأ ذلك .

(١) راجع دكتور محمود محمد مزروعه المرجع السابق ، وراجع دكتور عوض الله المرجع السابق أيضا ص ١٧

المعرفة والتقليد

يتضح مما سبق أن حقيقة المعرفة : هى الإدراك الجازم المطابق للواقع الناشىء عن دليل ، أما إذا كانت بلا دليل فلا تسمى معرفة كاملة ، بل تسمى معرفة ناقصة وتحتاج إلى الدليل .

والتقليد : الآخذ بقول الغير بلا دليل . وتأسيسا على القواعد السابقة اتفقت كلمة جمهور المسلمين على أن عقائد الإسلام فى الألوهية والنبوة يجب العلم بها والبحث فيها ببرهان ودليل قاطع للوصول إلى اعتقاد جازم مطابق للواقع ، حيث طالبنا الحق تبارك وتعالى بمعرفته والإيمان به بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا آمنو بالله ورسوله (١) .

ومن هنا جعل العلماء معرفة الله تعالى أول واجب على المكلف فى الإسلام .

ولما كانت معرفة حقيقة الذات الإلهية مستحيلة ، فقد قصر العلماء معرفة الله تعالى على معرفة مايجب له وما يستحيل عليه وما يجوز فى حقه تعالى عقلا .

وأيضا لما كانت الأدلة التفصيلية ورد الشبهات لا تتيسر لكافة بنى البشر قالوا إن المعرفة الإجمالية واجبة على كل مكلف بمعنى أن يسأل عن دليل على وجود الله تعالى فيقول : هذا العالم أو خروج هذا النبات أو وجود الإنسان ، ويكتفى بذلك من غير بيان لدقائق الصنع وقدرة التدبير ، ومن غير مقدرة على دفع ما يثيره الخصوم .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٦

وإذا كان الإنسان أهلا للنظر والبحث العلمى وجب عليه تفصيلا معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل فى جانب الألوهية والرسالة كما أشرنا إلى ذلك من قبل وهذا يسلمنا إلى الوقوف على المقصود بالنظر .

تعريف النظر :

النظر فى اللغة : يطلق بالاشتراك اللفظى على الإبصار بمعنى إدراك الشىء بحاسة البصر ، وعلى الفكر بمعنى حركة النفس فى المعقولات .

والمقصود هنا الفكر فعندما يطلب من المكلف أن ينظر فى أقرب شىء إليه وهى نفسه التى بين جنبيه وفى الكون المحيط به فكأنما يقال له تفكر فى ذلك كله وتأمل لترى الحكم البديعة فى صنع الخالق سبحانه وتعالى .

والنظر فى الاصطلاح : هو ترتيب أمور ومعلومة للتأدى أو للتوصل إلى أمر مجهول(١) .

وذلك كالنظر فى أحوال العالم وجزئياته فنجدها متغيرة متقلبه من وجود إلى عدم ومن حركة إلى سكون ومن طول إلى قصر ومن حياة إلى موت وهكذا .

فنستنتج من ذلك قضية قائلة : العالم متغير ، ثم ننظر فى التغير فنجده يؤذن بالحدوث أى الوجود بعد العدم فنقول : كل متغير حادث . فنصل من هذا وذاك إلى نتيجة كانت مجهولة لنا هى : أن العالم حادث .

---

(١) راجع دكتور جميل صليبا المعجم الفلسفى ج٢ ص٤٧٣ ط دار الكتاب اللبنان ١٩٨٢ م

وبعد ذلك ننظر فيمن أحدثه أهو نفسه أم غـــيره ؟ وغيره إما مثله أو ليس بمثله .

فنقول : نفسه باطل ، لأنه يلزم عليه المحال . وذلك لأن العالم ممكن والممكن ما تساوى طرفا وجوده وعدمه ، وترجيح الوجود على العدم من النفس ترجيح بلا مرجح وهو باطل لأنهما متساويان وترجيح أحـــد المتساويين على الآخر بلا مرجح يؤذن بالتناقض وهو أنهمـا متساويان لا متساويان ، هـذا من ناحيه ومن ناحية ثانية أن الوجود من النفس يقتضى عدم الحاجة والعالم محتاج لأنه ممـكن .

فلو كان العالم أوجد نفسه لـكان العالم محتاجا لا محتاجا وعلى هـذا فالنظر فى العالم وفى أحواله للوصول إلى مايجب لله وما يجوز ومايستحيل قد أوجبه الشارع وأمر به لأنه باب الوصول إلى اليقين والمعرفة الحقه قال تعالى : أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنمـا أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم . «(١)

وقال تعالى : إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ،(٢) إلى آخر الآيات التى توجب على المكلف النظر فى الـكون .

ومن هنا يتضح أن النظر يفيــــد العلم . وفى هـذا المقام يدلى علماء التوحيد عن أول واجب على المكلف ، بأقوال متعددة .

وجملة الأقول اثنا عشر حكاها الإمام الباجورى فى حاشيته .

(١) الآيات من سورة الغاشية
(٢) سورة آل عمران الآيه ١٩٠

وتتمثل فى النقاط التالية :

١ — ما قاله الأشعرى إمام هذا الفن أنه المعرفة .

٢ — ما قاله أبو اسحاق الاسفرايني أنه النظر الموصل إلى المعرفة .

٣ — ما قاله القاضى الباقلاني أنه أول النظر أى المقدمة الأولى منه نحو قولك «العالم حادث وكل حادث لا بد له من محدث» ، فمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هى أول النظر .

٤ — ما قاله إمام الحرمين أنه القصد إلى النظر أى تفريغ القلب عن الشواغل ، وعزى للقاضى أيضا .

٥ — ما قاله بعضهم أنه التقليد .

٦ — أنه النطق بالشهادتين .

٧ — ما قاله أبو هاشم فى طائفة من المعتزلة وغيرهم أنه الشك ورد بأنه مطلوب زواله لأن الشك فى شيء من العقائد كفر فلا يكون مطلوبا حصوله .

ولعلهم أرادوا ترديد الفكر فيئول إلى النظر .

٨ — أنه الإيمان .

٩ — أنه الإسلام .

وهذان القولان متقاربان مردودان باحتياج كل منهما إلى المعرفة .

١٠ — اعتقاد وجوب النظر .

١١ — أنه وظيفة الوقت كصلاة ضاق وقتها فتقدم .

١٢ — أنه المعرفة أو التقليد أى أحدهما لا بعينه فيكون مخيرا بينهما(١)

(١) الإمام الباجورى

وقد استدل القائلون بالمعرفة لأنها مطلوبة لذاتها ، وأنها أصل المقاصد الشرعية وآكدها وما كان بهذه المثابة فهو أول الواجبات .

وتعليلهم لهذا وذاك ينحصر فى أن المعرفة مطلوبة لذاتها لا للتوصل بها إلى غيرها وذلك لأن شأن الوسيلة يستغنى عنها إذا حصل المتوصل إليه والمعرفه لا يستغنى عنها بحال .

وأما كونها أصل المقاصد والواجبات الشرعية فلأن جميع المقاصد من نطق بالشهادة والصلاة والصوم لا يعتبر صحيحا فى نظر الشارع إلا بعد حصول المعرفة والتصديق القلبى .

وأما كونها آكد الواجبات فلأن إسقاطها يذهب الإيمان بعكس غيرها .

وأما من قال بالنظر أو القصد إلى النظر فقد نظروا إلى أن المعرفة لا تحصل إلا به أو القصد إليه فهو أول الوجبات ومن طلب الشهادة فقد نظر إلى أولية الأداء من حيث الدخول فى الإسلام(١) .

وعلى هذا يتضح قول الإمام الباجورى فى حاشيته : والأصح أن أول واجب أقصد المعرفة ، وأول واجب وسيلة قريبة النظر . ووسيلة بعيدة القصد إلى النظر(٢) .

وببيان هذه الأقوال يتضح أن الخلاف ليس فى وجوب المعرفة والنظر وإنما فى أول واجب على المكلف . ؟ وأنه معرفة الله تبارك وتعالى ووحدانيته ، وأنه صانع العالم ، وسائر صفاته ، وسائر صفات الألوهية .

---

(١) راجع دكتور على جبر محاضرات فى علم الكلام صـ ٢٩
(٢) الإمام الباجورى

وانما كانت المعرفة أول واجب على المكلف ، لأن جميع الواجبات لا تتحقق إلا بها ، هذا من جانب ومن جانب آخر فالمعرفة لا يتوصل إليها إلا بالنظر ، ومن هنا يكون النظر واجبا أيضا لأن المعرفة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وعلى هذا يتضح أن الخلاف بين هؤلاء قد يكون غير حقيقي لأن من قال بالمعرفة لا يمنع أن يكون وسيلتها التى تحصل بها هى النظر . فالمعرفة هى المقصودة والغاية .

ومن قال النظر : فهو يريد بذلك الوسيلة والطريق العملى المقصود والغاية التى هى المعرفة .

ومن قال أول واجب هو الشهادة فهو يريد بذلك التكلف العملى الذى يكون بعد المعرفة وإلا فالإقرار بالمجهول المطلق محال فالشهادة لا تكون عن جهل بل عن معرفة ولو بدليل إجمالى فإنك لو قلت للمستشهد من هو الله الذى أقررت به . ؟ قال : الذى خلق العالم . وهذا فى الغالب مركوز فى الفطرة والطبع .

ومن هنا نجد أن الأولية لم تنصب على معنى واحد حقيقى وهذا المراد من قولنا إن الخلاف بينهم غير حقيقى[1] .

كما جمع بينهم الإمام الباجورى .

وكما يقول ابن العربى فى العقيد الصغرى للسنوسى :

اعلموا — علمكم الله — أن هذا العلم المكلف به لا يحصل ضرورة ولا إلهاما ، ولا يصح التقليد فيه ، ولا يجوز أن يكون الخبر طريقا إليه ، وإنما الطريق إليه النظر ، ورسمه أنه الفكر المرتب فى النفس على

---

(١) المرجع السابق للدكتور على جبر

طريق يفضى إلى العلم أو الظن ، يطلب به من قام به علما فى العمليات أو غلبة ظن فى المظنونات ثم يقول ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء ، أو إلهاما لوضع الله تعالى ذلك فى قلب كل حى ليتحقق به التكليف ، وأيضاً فإن الإلهام نوع ضرورة وقد أبطلنا الضرورة(١) .

ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد — كما قال جماعة من المبتدعة — لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قول واحد من المقلدين أولى بالانقياد إليه من الآخر ، كيف وأقوالهم متضادة ومختلفة .

ولا يجوز أن يقال إنه يعلم بالخبر لأن من لم يعلم الله تعالى كيف يعلم أن الخبر خبره ؟

فثبت أن طريقه النظر وهو أول واجب على المكلف إذ المعرفة أول الواجبات ، ولا تحصل إلا به ، فبضرورة تقــديمه عليها تثبت له صفة الوجوب قبلها .

وإيجاب المعرفة بالله تعالى معلوم من دين الأمة ضرورة (٢) .

وعلى قول الإمام الباحور ، وابن العربى يمكن التوفيق أيضاً بين هـذه الآراء ببيان الفرق بينما هو غاية وما هو وسيله ، فإذا إعتبرنا الغايات والمقاصد قلنا إن أول واجب على المتكلف هو المعرفة .

وإن اعتبرنا الوسائل قلنا : إن أول واجب كوسيلة قريبة هو النظر .

---

(١) إذ الإلهام لو ثبت وقوعه لما آمن صاحبه أنه من الله أو من غيره إلا بعد النظر .

(٢) الاسفرايني التبصير فى الدين وراجع المواقف للإيجى ط ٣٢

وكوسيلة بعيدة هو القصد إلى النظر . لأنه لا يأتى إلا بعد القصد إليه. بتفريغ القلب من الشواغل التى تعوقه .

وبذلك تكون معرفته إدراكا جازما ناشئا عن دليل ويتحقق فيه بذلك شرط من شروط الإيمان وهو المعرفة حيث أجمعت الأمة الإسلامية . على وجوب معرفة الله تعالى عن طريق النظر . وهنا يرد سؤال : هل المقصود بالنظر النظر الشرعى أم النظر العقلى ؟

والجواب : أن الأمة الإسلامية أجمعت على وجوب معرفة الله تعالى واختلفت فى الطريق الموصلة إليها أى أنهم أختلفوا فى المقصود بالنظر . وعلى هذا تتمثل إتجاهاتهم فى النقاط التالية :

— يرى الصوفية أن معرفة الله تعالى تتحقق للسالك بالرياضة الروحية أى رياضة النفس وتصفية الباطن من عالم الماديات وبذلك تصل النفس إلى معرفة الله تعالى وأستدلوا على إتجاههم بقول الله تعالى : أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وفسروا النور بأنه هو المعرفة(١) .

وقال الأشاعرة . إن معرفة الله واجبة بالنظر الشرعى، بمعنى أن جميع الأحكام تثبت بالشرع إذ لا حكم قبل الشرع عندهم ، فالشرع هو الذى يدرك الحسن فى الأشياء والقبيح منها . فما حسنه الشرع فهو حسن، وما حكم بقبحه فهو قبيح .

وإذا كان الشرع هو مناط المعرفة عندهم فما وظيفة العقل لديهم ؟

إن من يتأمل ويدقق النظر فى كلام الأشاعرة يدرك أن العقل وظيفة فى المعرفة عندهم حيث ينطوى كلامهم على أن الموجب للمعرفة هو الشرع والمدرك لها هو العقل وفرق كبير بين الموجب للأمر وبين المدرك له .

---

(١) راجع الإمام الغزالى أحياء علوم الدين جـ٣ ص ٢٠

فالله سبحانه وتعالى يوجب الحكم على الأشياء والعقل يدرك هذا الحكم وهنا يتفق رأى الأشاعرة مع رأى المعتزلة الآتى من أن الله تعالى هو الموجب للمعرفة ، إلا أن الأشاعرة يقولون إن إدراكها يتلقى من الشرع لأن العقول لا تدرك الأحكام إستقلالا(١) .

وعلى هـذا فالشرع مرشد وهاد للعقل فى إدراك المعرفة ولذلك قال الأشاعرة : لا حكم على شىء قبل مجىء الشرع ولا تكليف بشىء أيضاً .

— وقد سلك أهل السنة طريقين فى إثبات ما أدعوه :

الطريق الأول : الدليل النقلى : ويتمثل فى الآيات القرآنية الداعية للنظر كما فى قوله تعالى : قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون «(٢) .

وقوله تعالى : إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب(٣) .

وكما فى قول الرسول ﷺ : ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها .

ولما كان الأمر بالنظر يحتمل أن يكون للوجوب أو للندب والدليل إذا تطرق إلية الاحتمال سقط به الاستدلال .

والحديث وارد بطريق الآحاد وهو يفيد الظن سلك أهل السنة طريق العقل وهو الطريق الثانى :

والدليل العقلى : النظر مقدور لا تحصل المعرفة الواجبة مطلقا إلا به ،

---

(١) راجع حاشية الشرقاوى ص ٣٩ نقلا عن الدكتور محمد السيد عن علم التوحيد ص١٥٢

(٢) سورة يونس الآية ١٠١ (٣) سورة آل عمران الآية ١٩٠

وكل مقدور لا يحصل الواجب المطلق إلا به فهو واجب.فالنتيجة: النظر واجب .

وهذا الدليل يشتمل على ثلاثة أمور .

١ — النظر مقدور .

٢ — المعرفة واجب مطلق .

٣ — وجوب معرفة الله تعالى .

أما الأمر الأول : وهو كون النظر مقدور أى من الأفعال الاختيارية التى تتعلق بها القدرة . وقيد بكونه مقدوراً لأنه محكوم عليه بالوجوب ولا يحكم بالوجوب إلا ما كان مقدوراً للمكلف . فغير المقدور لا يصح التكليف به .

— ومعنى كون المعرفة واجبا مطلقا وهو الأمر الثانى أن المعرفة ليس وجوبها مقيداً بحصول مقدمتة التى هى النظر وذلك كالصلاة بالنسبة الطهارة فإن وجوبها غير مقيد بحصول الطهارة بخلاف الواجب المقيدمثل الزكاة فإن وجوبها مقيد بملك النصاب ، والحج فإن وجوبه مقيد بالاستطاعة ،

ومعروف أن الواجب المطلق يجب على المكلف تحصيل مقدمته بخلاف المقيد فإنه لا يجب على المكلف تحصيل مقدمته .

— وأما الأمر الثالث : وهو وجوب معرفة الله تعالى فالدليل عليه النص والإجماع . أما الأول فقوله تعالى : فاعلم أنه لا إله الا الله .

وأما الثانى : أى الاجماع فقد نقل أن الأمة الإسلامية أجمعت على وجوب معرفة الله تعالى . ولا يقال إن السلف الصالح كانوا يكتفون

بالتقليد من يريد الدخول فى الإسلام وذلك بالإقرار بالشهادتين والانقياد لأوامر الدين ولا يكلفونهم الاستدلال وماذاك إلا لأنهم يرون أن المعرفة بالدليل لا تجب ؟

والجواب على هذا : المنع بل كان السلف الصالح يعلمون من هؤلاء الذين دخلوا الإسلام واكتفى منهم بالشهادتين أنهم يعلمون الأدلة إجمالا وإن قصرت عبارتهم.

وليست هذه دعوى بدون دليل بل يشير القرآن الكريم إلى أنهم عارفون بالأدلة الإجمالية : قال تعالى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . وقول الأعرابى : البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير ، سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على العليم الخبير ؟ ! .

وقد قال علماء التوحيد : إن معرفة الله بدليل إجمالى ترفع المؤمن عن حضيض التقليد فهو فرض على كل مكلف(١) كما يقول الشيخ محمد عبده فى تعليقه على إيمان المقلد . فى العقائد العضدية : إن الواجب العينى هو اليقين من أى طريق أخذ ، وقد كان ذلك حاصلا فى زمن النبى وأصحابه وإنما أحتيج إلى الطريق التفصيلى بعد ذلك لردع المعاندين مخافة على عقول القاصرين ، وإن كان هناك خلاف حول إيمان المقلد كما سنقف عليه فى مكانه.

— أما المعتزلة فقد قالوا : إن معرفة الله تعالى واجبة بالنظر العقلى والشرع يأتى إما مبينا لما خفى على العقل إدراكه أو مؤكدا ومقررا لما قال به العقل .

---

(١) راجع المرجع السابق للدكتور على جبر

ودليلهم : أن العقل يدرك الحسن فى الأشياء والقبح منها ، فما حكم العقل بحسنه فهو حسن عندهم ، وما حكم العقل بقبحه فهو قبيح — لأن العقل يعلم المصلحة فى الأفعال ثم يجىء الشرع مؤكدا لما قرره العقل ، أو يأتى الشرع لبيان ماخفى وغمض على العقل إدراك حسنه أو قبحه من الأفعال مثل إدراك صوم آخر يوم من رمضان ، وادراك قبح صوم أول يوم من شوال ، فإنهما متماثلان فى أن كلا منهما زمن ، فلا يدرك العقل فيهما مفسدة ولا مصلحة ، بل يتوقف على أمر الشارع بأحدهما ونهيه عن الآخر .

وشرط العقل عندهم فى ادراك المعرفة يتوقف على النقاط التالية :

١ — أن يكون الفعل ضروريا .

٢ — أن يكون الفعل قابلا للنظر والتأمل .

٣ — الاستعانة بالشرع فى إدراكه .

فالأشاعرة يخالفون المعتزلة فى الشرطين الأول والثانى ويوافقونهم فى الشرط الثالث وهو استعانة العقل بالشرع فى إدراك الأفعال أى معرفتها .

والأشاعرة يقولون : إن العقل يدرك الحكم من حسن أو قبح بواسطة الشرع وإن لم يدرك أن فى الفعل مصلحة أو مفسده[1] .

والملاحظ هنا أن المعتزلة يتطرفون فى استخدام العقل ويبالغون فى وظيفته ويقولون : إن العقل لا يدرك الحكم على الفعل إلا إذا أدرك أن فيه مصلحة أو مفسدة .

---

(١) شرح الشرقاوى على الهدهد ص ٥٠ نقلا عن الدكتور محمد مبارك علم التوحيد ص ١٥٥

فالأمر الحسن عند الأشاعرة ، ماحسنه الشرع وأيضاً القبيح ما قبحه الشرع وإن لم يعرف العقل أن فيه مصلحة أو مفسدة عند الله تعالى: ولا حكم قبل الشرع أصلا للعقل.

وقد أول المعتزلة الرسول بالعقل فى قول الله تبارك وتعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا(١) ، أى عقلا فمناط التكليف عندهم العقل وحده وعلى قول المعتزلة هذا يلزم أن أهل الفترة مكلفون ، لأن العقل موجود فيهم قبل بعثة الرسل وبعدها كما يلزم أنهم غير ناجين لأنهم مكلفون لوجود العقل فيهم .

وهنا يرد على المعتزلة بأن التأويل الذى زعموه لم يشهد له نص من النقل ولا من اللغة حيث يؤلون الرسول بالعقل ، يضاف إلى هذا أنه متى أمكن فهم الحقيقة من النص باستعمال الكلام فيه على الحقيقة لا يجوز اللجوء إلى إخراجه عن حقيقته إلى استعمال مجازى لا داعى له سوى أنهم اعتمدوا على العقل فى تفسير ومعرفة الحكم على كل شىء(٢) .

ودليلهم على ذلك لو كان وجوب النظر بالشرع للزم إفحام الرسل، لكن إفحام الرسل باطل، إذ الدليل قائم على أن كل رسول قد بلغ الرسالة وألزم المرسل إليهم بالحجة والبرهان فوجوب النظر بالشرع باطل ، وإذا بطل هذا ثبت نقيضه وهو : أن النظر واجب بالعقل إذ لا ثالث ، حيث يقول الرسول للمرسل إليه أى المكلف ، انظر فى الآيات الدالة على صدق وفى الكون لتعلم بوجود الله .

فيقول المكلف : قولك — أنظر — هل هو واجب على النظر أو غير واجب ؟ .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ وراجع المرجع السابق .
(٢) المرجع نفسه

فإن كان غير واجب فأنا فى حل من عدم النظر لأنك تقول :لا يلزمك إتباع أمرى ، وإن كان واجباً فأنا لا أسلم لك ذلك إلا إذا وجب النظر، ولا يجب النظر إلا إذا ثبت الشرع لأنك تقول : وجوب النظر بالشرع، ولا يثبت الشرع إلا إذا نظرت .

وهنافقد توقف حصول النظرعلى وجوبه.وتوقف وجوبه على ثبوت الشرع ، وتوقف ثبوت الشرع على حصول النظر.

وهذا يؤدى إلى توقف حصول النظر على حصول النظر،وهو دور لأن توقف الشىء على نفسه محال ، فما أدى إليه وهو وجوب النظر بالشرع محال ، وإذا استحال هذا ثبت أن وجوب النظر بالعقل.

ويجاب عنه بأن فيه غلطا لم يتنبه له المعتزلى لأن إلزام الرسل المكلف بالنظر ، متوقف على وجوبه فى نفس الأمر ، ووجوبه على هذا الوجه يتوقف على ثبوت الشرع فى نفس الأمر لا على علم المكلف ونظره ، فالشرع ثبت فى نفس الأمر بالمعجزة نظر المكلف أولم ينظر ، وما مثله إلا كرجل وضع يده على عينيه بالنهار والشمس طالعة وأنكرها بحجة أنه لم يرها .

فنقول : الشمس طالعة نظرت أم لم تنظر(١) .

كما يقال للمعتزلة: إنه لو وجب النظر العقلى لوجوب قبل البعثة وحينئذ يكون وجوب النظر غير متوقف على البعثة ، بل متوقف على العقل وحده، والعقل قبل البعثة وجوده متحقق ، وعلى هذا فالوجوب قبل البعثة يلزمه التعذيب بترك الواجب أى النظر العقلى ولكن قوله تعالى «وما كنا معذبين

---

(١) دكتور على جبر محاضرات فى علم الكلام

حتى نبعث رسولا ، وهذا يفيدنى الوجوب قبل البعثة بنفى لازم الوجوب الذى هو التعذيب قبل البعثة ، ونفى الوجوب قبل البعثة يلزمه نفى الوجوب العقلى ، وهذا يستلزم إثبات الوجوب الشرعى .

كما فى قوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، على أنه ليس الوجوب إلا من جهة الشرع وعليه المعول فى معرفة الله تعالى(١).

وهنا يرد المعتزلة بأن المراد — كما قالوا سابقا — بالرسول هو العقل وليس المراد الرسول المبعوث إلى الناس حتى يلزم ماذكرتم مع أن المتأمل فى كلامهم السابق فى الطريق إلى المعرفة للأفعال لإدراك حسنها أو قبحها يعرف تماما أنهم لم يعتمدوا على العقل كل الإعتماد وإنما احتاجوا إلى الشرع فيما خفى واستعصى على العقل معرفته .

وهنا يتحقق تأرجح المعتزلة وعدم ثباتهم فالشمس طالعة نظرت المعتزله أم لم تنظر ، وأن النظر العقلى الصحيح الناشىء عن طريق الشرع هو الطريق السليم لمعرفة الله تعالى .

ثمرة هذا الخلاف :

وثمرة هذا الخلاف إنما تظهر بالنسبة لأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة النبى السابق ولم يرسل إليهم النبى اللاحق.

فأهل السنة القائلون بأن النظر واجب بالشرع يقولون بعدم تكليف أهل الفترة الذين لم يرسل إليهم رسول وأنهم ناجون لا يعذبون على

---

(١) راجع شرح مطالع الأنظار ص ٣٤

أعمالهم التى أرتكبوها فى أثناء الفترة حيث لم تكن بعثة رسول مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا».

وأهل الاعتزال القائلون بأن النظر واجب بالعقل يقولون بأن أهل الفترة مكلفون .

وهذا يسلمنا للوقوف على رأى علماء الأمة فى قضايا علم الكلام .

موقف علماء الأمه من علم الكلام

يتضح مما تقدم مكانة علم الكلام بين العلوم الشرعية ، ومع هذا فقد تعددت أقوال العلماء حوله بين مؤيد له ومعارض وآخذ منه بقدر .

ولذا يقول القشيرى : العجب ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام ، وآيات الأحكام الشرعية — أى العملية — تجدها محصورة ، والآيات المنبهة على علم الأصول تربو على ذلك بكثير(١) : وهذا يدعونا للوقوف على موقف كل من هؤلاء، الأمر الذى يوقفنا على بيان رأى الأمة فى قضايا هذا العلم .

أولا : المؤيدون: ويتصدر هؤلاء أصحاب علم لكلام أنفسهم ويقولون بضرورة النظر فى قضايا أصول الدين وإثباتها بالعقل ، وذلك للدفاع عن قضايا الدين والذود عنها ضد شبهات المبطلين وهذا ما بينه العلامة ابن خلدون فى قوله : المتكلمون إنما دعاهم إلى ذلك — أى الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية — كلام أهل الإلحاد فى معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية ، فاحتاجوا إلى الرد عليهم من جنس معارضاتهم(٢) .

ليس هذا فحسب بل إن الإيمان القائم على العقل أقوى من من الإيمان

---

(١) البياضى كمال الدين أحمد ، إشارات المرام من عبارات الإمام ط ، الحلبى ١٩٤٩م .

(٢) العلامة ابن خلدون المقدمة ص٤٦٦ ط دار القلم بيروت ١٩٨١م . وراجع دكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى علم الكلام وبعض مشكلاته ص١٥٣ ط ١٩٧٩ م

الذى يقوم على التقليد ، وأقاموا الأدلة والبراهين على صحة موقفهم ،ومن هنا أفرد بعضهم مصنفات لأهمية النظر ، ونذكر على سبيل المثال افتتاح الماتريدى كتابه التوحيد ببيان أن طريق معرفة الدين تتم بالنظر القائم على العقل ، ونجد الأشعرى كتاب استحسان الخوض فى علم الكلام يوضح فيه ضرورة النظر فى قضايا الدين ، وأن النظر مأمور به وليس منهيا عنه .
ومن بعده نجد الأشاعرة أمثال الباقلانى والجوينى وغيرهما من أصحاب هذا الإتجاة يوضحون أهمية النظر فى قضايا الدين،كما نادى بهذا أصحاب الإتجاه الإعتزالى ليس هذا فحسب بل وتقديمه على السمع ، إذ عليه يتوقف صحة السمع وليست هذه دعوى بدون دليل بل نجد ذلك فى مؤلفاتهم كما بينها صاحب شرح الأصول الخمسة وأفرد جزءاً منها بعنوان النظر والمعارف على بيان أهمية النظر وأنه أول الواجبات على المكلف كما وقفنا على ذلك فيما تقدم،ونذكر هنا بأدلة أصحاب هذا الإتجاه،وما كاذكرها الإيجى فى كتابه المواقف وكما ذكرها التهانوى فى كتابه كشاف اصطلاحات الفنون ، وتتمثل هذه الأدلة فيما يلى: —

١ — الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة اليقين ، قال تعالى ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات،وأن إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد الذى يكون عرضة للشكوك ولا يستطيع دفعها لأنه لا يملك الدليل على صحة إيمانه .

٢ — إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم .

٣ — حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين .

٤ — أنه يبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها .

٥ — صحة النية والإعتقاد . إذ بهما يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين(١) .

وإذا كان الفوز بسعادة الدارين هو الغاية النهائية لعلم الكلام فإن لهذا العلم غاية تفضى إلى تلك الغاية النهائية كما تبين فيما سبق وكما عبر عنها الشيخ محمد عبده فى قوله : والغاية من هذا العلم القيام بغرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل إتصافه به ، والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن إليه النفس إعتمادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب ، فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه(٢) .

ومن هنا فأصحاب هذا الإتجاه يرون أن علم الكلام هو أعلى مرتبة فى دراسة العلوم وأشرفها ، وبه تتحقق النجاة من الهلاك ليس هذا فحسب بل وتتحقق السعادة الأبدية ، ومن هنا وجب الاشتغال به .

ثانيا : المعارضون : ويقوم أصحاب هذا الإتجاه على تحريم الاشتغال بقضايا علم الكلام لما فى الخوض فى تناولها من مضرة بالغة وأن الدين قد نهى عن الاشتغال به .

واستند أصحاب هذا الإتجاه إلى الأقوال والحجج التالية :

---

(١) المواقف للإيجى ص٨ وراجع التهانوى كشاف إصطلاحات الفنون ص٢٣ والعلامة ابن خلدون المقدمة .

(٢) الإمام محمد عبده رسالة التوحيد ص٢٢ ط الشعب . وراجع الإمام الغزالى الاقتصاد فى الاعتقاد .

أولا : أن الرسول — ﷺ — لم يترك أمراً من أمور الدين إلا وقد أوضحه وأتم بيانه بما ينبغى أن يكون ، وقد كمل إتمام الدين بقول الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً(١) .

وعلى هذا فالخوض فى هذه القضايا يعتبر بدعة .

ثانيا : أن الأئمة والفقهاء قد أنكروا الاشتغال به ، وقالوا إن الدين قد نهى عنه .

وإلى التحريم ذهب الإمام الشافعى وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل ومالك وجمتع أهل الحديث من السلف(٢) .

فقد روى عن الإمام مالك — رضى الله تعالى عنه — أنه قال: إياكم والبدع ، قيل . يا أبا عبد الله وما البدع ؟

قال : أهل البدع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون(٣) . كما قال لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء . وقال بعض أصحابه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا .

وهنا ينبه الإمام مالك إلى الحكمة فى التحريم فيقول: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه . ؟ أيدع دينه كل يوم لدين جديد . ؟

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

(٢) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٠٧ ط الحلبى .

(٣) طاش كبرى زاده مفتاح السعادة ج ٢ ص ١٥٣ وابن عساكر تبيين كذب المفترى عليه ص ٢٣٥

يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت(١) . وعلى هذا كانت العلة فى التحريم ما يترتب على الجدل من الفرقة والإنقسام فى الدين .

— أما موقف الإمام أبى حنيفة فلقد نهى إبنه حماد عن الاشتغال بالكلام :

وقد قال له حماد : رأيتك وأنت تتكلم فما بالك تنهانى ؟

فقال : يا بنى كنا نتكلم وكل واحد منا كأن على رأسه الطير مخافة أن يزل صاحبه . وأنتم اليوم تتكلمون . . كل واحد يريد أن يزل صاحبه . ومن أراد أن يزل صاحبه فكأنه أراد أن يكفر ، ومن أراد أن يكفر صاحبه فقد كفر قبل أن يكفر صاحبه(٢) .

والإمام أبو حنيفة هنا ينبه أيضاً إلى علة تحريم علم الكلام وهى ولا ترجع إلى طبيعة الكلام ذاته بل ترجع إلى سوء إستخدام المتكلمين الجدل . . . إذ يصبح الجدل غاية فى ذاته ولا يكون سبيلا موصلا إلى الحقيقة فى القضية محل البحث . بل سبيل إلحام الخصم وتكفيره . . . وهذا بدوره يؤدى إلى حدوث الفتنة والشقاق بين المسلمين(٣) .

والإمام الشافعى كان أكثر تشديداً على المتكلمين حتى أنه يجعل الاشتغال بقضايا علم الكلام من أعظم الكبائر فيقول : لأن يلق الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشىء من علم الكلام .

---

(١) الإمام الغزالى المرجع السابق جـ ١ صـ ١٠١ مع تقديم وتأخير .

(٢،٣) طاش كبرى زاده مفتاح السعادة جـ ٢ صـ ١٥٤ وراجع دكتور على عبد الفتاح الفرق الإسلامية صـ ١٠٩ ١٩٨٦ م .

فهو يلي الشرك من حيث عظم الذنوب وأشدها ، ولذا كان الإمام الشافعي شديد الحظر سيء الظن بعلم الكلام وبسوء نتائجه فقال محذرا من الإشتغال به . لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد . وأفتى بأن يضرب أصحاب الكلام بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام(١) .

ويؤكد هذا فيقول أيضا : كل متكلم على الكتاب والسنة فهو الجد الذي يجب . وكل متكلم على غير أصل كتاب ولا سنة فهو هذيان(٢) .

وهنا يذكر ابن عساكر أن كراهية الإمام الشافعي للخوض في علم الكلام لا تنصرف إليه كعلم وإنما تنصرف إلى كلام القدرية وأهل الأهواء والبدع كما يذكر أنه قد ناقش هؤلاء وأبطل أدلتهم وبلغ في علم الكلام مبلغاً كبيراً .

ولم يكن الإمام أحمد بن حنبل أقل من سابقيه من الفقهاء في إنكار الاشتغال بقضايا علم الكلام فلقد قال : لا يفلح صاحب الكلام أبداً ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل أي مرض . . .

---

(١) الإمام الغزالي المرجع السابق جـ ١ ص ١٠١

وراجع الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء لأبي عمر يوسف ص٧٩ مكتبة القدس .

وراجع حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ٩ ص ١١١ دار الكتب العلمية .

(٢) البيهقي جـ ١ ص ٤٧٠

وراجع دكتور عبد الحليم محمود التفكير الفلسفي في الإسلام ص١٢٨ وما بعدها ط الأولى ١٩٧٤ م .

بل لقد كان ابن حنبل أكثر تشدداً من سابقيه فأفتى بأن علماء الكلام زنادقة(١) .

وهنا قد يسأل سائل : هل كان هؤلاء الأئمة على دراية بعلم الكلام ؟

وما المقصود بعلم الكلام ، وعلماء الكلام فى عباراتهم ؟

وما هى الأسباب التى دفعتهم إلى أن يقفوا هذا الموقف من ذلك العلم ؟

والبيان حول هذه النقاط فوق ما تقدم نستطيع أن نقول : ان هؤلاء الأئمة كانوا على دراية تامة بقضايا هذا العلم ويؤيد هذا مواقفهم السابقة فى النهى عن الخوض فى قضاياه .

وأما المقصود بعلم الكلام فهو ذلك الجدل الذى كان يثار فى عصرهم حول بعض مسائل القضاء والقدر وفتنة القول بخلق القرآن وما شابهها لا بقصد الوصول الى الحق وخدمة الدين بل بقصد الانتصار للنفس ، والاستعلاء على الآخرين ، وتملق الحاكمين وكل ذلك على حساب الدين .

والمقصود بعلماء الكلام هم أهل الأهواء والبدع والنزعات المجافية للفطرة والتوحيد من شيعة وجهمية وغلاة المعتزلة والفلاسفة .

قال البيهقى : أراد بالكلام عن حديث الإمام الشافعى : ما وقع فيه أهل الإلحاد من الإلحاد وأهل البدع من البدع(٢) .

وقد كان الشافعى يطلق على المجادلين فى القدر أهل الأهواء . وعلى هذا يتضح أن مرادهم من علم الكلام — علم الأهواء — والمراد بعلماء الكلام المتنطعون — الذين ذكروا فى الحديث الذى رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ هلك المتنطعون . قالها ثلاثا .

---

(١) الإمام الغزالى المرجع السابق وراجع طاش كبرى زاده مفتاح السعادة جـ٢ صـ ١٥٣

(٢) السنن الكبرى البيهقى جـ ١ صـ ٤٥٨

قال الإمام النووى : أى المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود فى أقوالهم وأفعالهم(١) .

وأما الأسباب التى دفعتهم إلى أن يقفوا هـذا الموقف من ذلك العلم فهى متعددة ومتشعبة بعضها يرجع إلى موضوع علم الكلام ، وبعضها يعود إلى منهج البحث فيه ، وبعضها الآخر يكمن فى القائمين عليه وفى توظيفهم لقضايا هذا العلم أو الهدف من البحث فيه .

— أما الأول أى السبب الذى يعود إلى موضوع علم الكلام : فهو خطورة الموضوعات التى كان يتناولها هذا العلم ، وعظم الخطأ فيها . وذلك أن الباحث إذا أخطأ فى مسألة نقض الوضـــوء بلمس المرأة الأجنبية أو وضع اليدين فى الصلاة مثلا ، فلن يترتب على ذلك كفر أو إلحاد أو خروج من ملة الإسلام بخلاف البحث فى بعض مسائل علم الكلام .

ومن هنا كان خوفهم من فتح الباب على مصراعيه للبحث فى مسائله كما بين ذلك الإمام الشافعى فى قوله لتلاميذه : تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه ، يقال لكم أخطأتم ، ولا تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه ، يقال لكم كفرتم(٢) .

— وأما الثانى أى السبب الذى يرجع إلى منهج البحث فى علم الكلام . فقد كانوا يؤمنون — كما سبق أن ذكرنا — بأن للعقل حداً يقف عنده ، كما أن للبصر حداً يقف عنده ، ومن هنا كان لابد من تأسيس علم الكلام على القرآن والسنة ويكون دور العقل دور العامل المساعد لإيقاظ

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى باب العلم . النووى على شرح مسلم جـ١٦ ص ٢٢٠

(٢) السنن الكبرى للبيهقى جـ١ ص ٤٥٩

منبهات الفطرة فى النفس لا دور المستقل فى قضايا البحث فى مسائل علم الكلام .

وهنا نتأمل مناظرة الإمام الشافعى لنقف على أسس منهج البحث كما ينبغى أن يكون وكما نادى به رحمه الله تعالى .

دخل بشر المريسى على الإمام الشافعى فقال له الإمام أخبرنى عن ما تدعو إليه . أفيه كتاب ناطق ، وفرق مفترض ، وسنه قائمة ووجب على الناس البحث فيه والسؤال ؟ .

فقال بشر : ليس فيه ما أطلقت إلا أنه لا يسعنا خلافه .

فقال له الشافعى : قد أقررت على نفسك الخطأ(١) .

وهنا يوقفنا الإمام الشافعى على ماينبغى أن يقوم عليه منهج البحث فى علم الكلام ، وأنه يتمثل فى الكتاب الناطق ، والسنة القائمة ، وإلا لذهب الاتباع ، وحل محله الابتداع وشاع الفتور الدينى ، وذاع الإدعاء على الشرع كما قال :

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا
في الدين بالرأى لم تبعث بها الرسل
حتى استخف بدين الله أكثرهم
وفى الذى حملوا من حقه شغل

وهذا الفكر الغريب على البيئة الإسلامية هو سبب الفرقة بين المسلمين والتطاحن فيما بينهم .

---

(١) الحلية جـ ١ ص ١١١ والبيهقى المرجع السابق جـ ١ ص ٢٠٤

ولذا يقول الشافعى ما جهل الناس وما اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطا طاليس(١) .

وقد كانت قضايا علم الكلام تعتمد كل الاعتماد على العقل ولسان أرسطاطاليس .

وأما الثالث : أى السبب الذى يكمن فى القائمين على علم الكلام ، وفى الهدف من البحث فيه الجدل والمراء ، وأنه بهذا الجدل والمراء كان المسئول عن تفرق المسلمين واختلافهم وبث الشر فى الأمة وأن استخدام المصطلحات الكلامية قد أدى إلى منازعات وخصومات بين المسلمين لعدم الاتفاق على مدلولاتها ، فأصبح لكل فرقة تشقيقات كلامية تختلف عن غيرها مما أدى إلى ظهور الفرقة بين صفوف المسلمين(٢) لما كانوا يستخدمونه فى برهنتهم على العقائد الدينية بأدلة جدلية معقدة يتعذر فهمها على عامة الخلق ، وذلك كدليل لجوهر الفرد الذى استخدم فى البرهنة على وجود الله تعالى واعتمد فيه المتكلمون على مقدمات مطولة مشكوك فى صحتها ويصعب فهمها ، فضلا عن مجافاة هذا الاتجاه الجدلى للأدلة الشرعية التى ذكرها القرآن الكريم(٣) . ويكفينا أن نذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله تعالى — يقول الفخر الرازى : إن الفتن العظيمة وقعت فى ذلك الزمان بسبب خوض الناس فى مسألة القرآن ، وأهل البدع استعانوا بالسلطان ، وقهروا أهل الحق ، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحققين ، فلما عرف الشافعى أن البحث فى قضايا هذا العلم ما كان فى ذلك الزمان الله وفى الله

---

(١) صون المنطق والكلام للسيوطى ج ١ ص ٤٨ ط مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) انظر السيوطى المرجع السابق .

(٣) الإمام ابن تيمية الرد على المنطقيين ص ٢٧٠ وراجع ابن رشد مناهج الأدلة ص ١٤٠

بل لأجل الدنيا والسلطنة ... أعرض عنه ، وذم من اشتغل به(١) .

وبعد هذا البيان لأصحاب هذا الاتجاه السلفى يتضح لنا القصد من قولهم بالتحريم والهجوم الذى تعرض له هذا العلم ونقله كثيرون كشيخ الإسلام الهروى فى كتابه ذم الكلام والسيوطى فى كتابه صون المنطق والكلام. والخلاف الذى ثار فى بعض العصور حول منع الاشتغال بدراسة أو استحسان الخوض فى قضاياه فيرجع فى الحقيقة إلى أسباب تاريخية فى حياة هذا العلم ، وإلى الصراع التقليدى بين النصيين والعقليين فى تاريخ كل ثقافة دينية ... ولكن البحث التاريخى قد أوضح إلى حد ا أن دراسة قضايا العقيدة الإسلامية وشرح التصور الإسلامى للألوهية والعالم والإنسان كان مبكراً جداً وأنه لم يحظ بمثل الجهود التى رصدت للفقه عادة. وقد كان دائماً موضع العناية والاعتداد ، باعتبار أن الإيمان هو أساس السلوك على المستوى الفردى وباعتبار أن التصور الفكرى العقائدى هو أصل النظم التطبيقية فى حياة الجماعة(٢) .

ونذكر فى هذا المقام على سبيل المثال مسألة القول بقدم العالم أو حدوثه، والتى تعتبر من كبريات المشاكل التى ثار فيها الجدل بين المتكلمين والفلاسفة. والواضح إذن أن تكون نشأة الجدل فى هذه القضية دخيلة على العقيدة الإسلامية فهى لم توجد فى محيط الفكر الإسلامى إلا بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية واشتغل بها بعض مفكرى الإسلام وتأثروا فى كثير من آرائهم بآراء فلاسفة اليونان — وخاصة أبو نصر الفارابى وابن

---

(١) مناقب الإمام الشافعى للرازى ص ١٠٣ ط الكليات الأزهرية وراجع دكتور محمد ربيع محمد الإمام الشافعى وعلم الكلام ص ٤٢ الطباعة المحمدية ١٩٨٦ م .

(٢) دكتور محمد كمال جعفر فى الفلسفة مدخل وتاريخ بالاشتراك ص ١٧٢ ط ١٩٨١ م .

سينا — فقد ذهب كل منهما إلى القول بقدم العالم تبعاً لأرسطو معتمدين فى ذلك على الأدلة العقلية التى تؤدى فى نظرهم إلى استحالة القول بحدوث العالم .

وكان من الطبيعى أن يتصادم قولهم هذا فى البيئة الإسلامية مع عقيدة الخلق المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله — ﷺ — والتى تقرر أن العالم مخلوق ومصنوع لله عز وجل .

ومن ثم كان الاعتقاد بحدوث العالم ووجوده بعد أن لم يكن هو الاعتقاد الذى استقر فى وجدان المسلمين واطمأنت إليه قلوبهم ، ومن هنا اهتم المتكلمون بإقامة الأدلة العقلية المستمدة من القرآن الكريم على حدوث العالم كما نجد ذلك لدى أصحاب الاتجاه الأشعرى ليس هذا فحسب بل نجد مثل هذا الاستدلال عند أحد فلاسفة الإسلام وهو — الكندى — الذى يتفق مع جمهور المسلمين فى القول بحدوث العالم ويستدل على ذلك بأدلة عقلية صرفة ، وأدلة أخرى مستمدة من القرآن الكريم(١) .

ولذا كان من الطبيعى بإزاء ذلك أن ينهض المتكلمون للرد على الفلاسفة فى هذه القضية ، وكان أبو حامد الغزالى هو المفكر المسلم الذى حمل لواء هذا الرد على أساس عقلى فى كتابه — تهافت الفلاسفة — الذى فند فيه آراء الفلاسفة فى مجال الإلهيات ، وبين تهافتهم فى مسائلها فضمن كتابه المذكور آراء الفلاسفة فى الإلهيات إذ حدد ما أخطأوا فيه منها فى عشرين مسألة . بدع الفلاسفة فى سبع عشرة مسألة وكفرهم فى ثلاث مسائل . معللا هذا الخطأ باعتماد الفلاسفة — الفارابى وابن سينا — فيها على العقل دون الشرع فى حين أن العقل بدون الشرع قاصر عن الوصول إلى الحق واليقين فى هذه المسائل(٢) ومن هنا كان ظهور أصحاب الاتجاه المتوسط .

---

(١) دكتور صلاح عبد العليم مذكرة فى النصوص الفلسفية .

(٢) المرجع السابق .

ثالثاً : أصحاب الاتجاه الثالث وهم الأشاعرة : ويقوم أصحاب هذا الاتجاه على التوسط بين المغالين فى التمسك بظواهر النصوص كالمشبهة والمجسمة أو فى التمسك بالعقل كالمعتزلة المؤيدين لدراسة قضايا علم الكلام ، وهؤلاء يميزون بين موضوعات علم الكلام وذلك لأن قضايا علم الكلام منها المذموم ومنها المحمود . وأيضاً من حيث المشتغلين به والممنوعين من الاشتغال به .

والكلام المحمود هو المباحث المتعلقة بإثبات الواجب لله تعالى وصفاته والنبوة والمعاد على قانون الإسلام .

وهذه المسائل أصل العلوم الشرعية وأساسها كما تبين فيما تقدم وهى تفصيل الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر على وجه الإيقان والإتقان(١) ومن هنا يتضح أن منهج الأشعرى كما يقول الباحثون منهج وسط بين المغالين ويقوم على مسلك النقل والعقل فهو يثبت ما جاء فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من أوصاف لله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب ويتجه إلى الأدلة العقلية يستدل بها على صدق ما جاء فى القرآن والسنة عقلا بعد الإيمان بها كما هى نقلا ، فهو لا يتخذ من العقل حاكما على النصوص ليؤولها أو ينفى ظاهرها وإنما يتخذ العقل خادما لظواهر النصوص يؤيدها(٢) . أى أن هذه المباحث المذكورة لتقوية الكتاب والسنة لا لمخالفتها فلا حرمة ولا كراهة فيها . بل معرفة هذه المباحث على وجه الإجمال فرض عين على كل مسلم . وهى على وجه التفصيل من فروض الكفاية ليس هذا فحسب بل فيها حراسة العقيدة على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة وهذه من فروض الكفايات .

---

(١) راجع دكتور على عبد الفتاح المرجع السابق ص ١١٣

(٢) راجع ابن تيمية معارج الأصول من مجموعة الرسائل ج١ ص ١٧٩ والإمام أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٦٧

وهذا ماذكره الإمام الغزالى فى قوله عن علم الكلام ومقصوده حفظ عقيده أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، فقى ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسله عقيدة هى الحق على مافية صلاح دينهم ودنياهم ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها. وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فمنه نشأ علم الكلام وأهله . وأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة(١)

وعلى هذا فإن علم الكلام مباح عند الحاجة وليست فيه حرمة كما أن المذموم من الكلام هو الكلام المخالف للكتاب والسنة كإدخال مسائل وقضايا لاتوافق الكتاب والسنه أو إثبات مسائل على وجه لايوافق الكتاب والسنة(٢) ولذا ينبه الإمام الغزالى إلى الطريق الصحيح بقوله .

« فالعقل مع الشرع نور على نور والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور .

ويقول : فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأدواء ،ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى بأحدهما عن الآخر ى غمار الأغبياء(٣)

كما يؤكد على هـــذا المعنى فى كتابه معارج القدس فيقول : فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغن البصر مالم يكن شعاع ، ولن يغنى

---

(١) الإمام الغزالى المنقذ من الضلال ص ٩٠ تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وراجع إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٠١

(٢) انظر طاش كبرى زاده المرجع السابق ج ٢ ص ٢٥٨

(٣) الإمام الغزالى الاقتصاد فى الاعتقاد مع تقديم وتأخير ص ٣

الشعاع مالم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)(١) وهذا هو الطريق الذى نادى به أهل العلم والحق ببيان الارتباط بين العقل والشرع وأن الأول أى العقل كالأس — الأساس — والثانى أى الشرع كالبناء ولن يغنى — أس — مالم يكن بناء وان يثبت بناء مالم يكن — أس — أى أساس(٢)

وهذا هو الطريق الذى امتثل له أهل العلم والحق .

وقد ذكر ابن عساكر وغيره أمثلة كثيرة لمنهج الأشعرى فى التوسط بين المغالين سواء كانت فى الصفات أو فى القضايا الأخرى .

فرأيه فى الصفات أنه وسط بين المعتزلة الذين نفوا صفات المعانى التى وردت فى القرآن الكريم وبين المشبهة الذين شبهوا ذاته تعالى فى أوصافها بصفات الحوادث .

وجاء الأشعرى فأثبت الصفات التى وردت كلها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة وقرر أنها صفات ليست كصفات الحوادث بل هى صفات تليق بذاته تعالى ،

أما رؤية الله تعالى فأنكرها المعتزلة يوم القيامة ، وقال المشبهة إن الله يرى يوم القيامة مكيفاً محدودا ، وذهب الأشعرى إلى التوسط فقال إنه تعالى يرى من غير حلول ولا حدود .

وبالنسبة لكلام الله تعالى قال المعتزلة القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى ، وقال المشبهة الحروف المقطعة والأجسام التى يكتب عليها والمداد

---

(١) الإمام الغزالى معارج القدس ص ٦٤ والآية ١٥ من سورة المائدة
(٢) الإمام الغزالى المرجع السابق

الذى يكتب به ومابين الدفتين كلها قديمة أزلية ، فسلك الأشعرى طريقة بينهما وقال القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ولا مبتدع فأما الحروف المقطعة والأجسام والمداد والأصوات وكل مافى العالم من المكيفات فمخلوق مبتدع ومخترع :

وبالنسبة للصفات الخبرية التى ثبتت عن طريق الشرع مثل قوله تعالى يد الله فوق أيديهم ، ذهب المعتزلة إلى أن المراد باليد السلطان والقوة وذهب المشبهة إلى أن يده يد جارحة .

وقال الأشعرى يده يد تليق بذاته الكريمة وليست يد جارحة كأيدينا(١) وهذا ماظهر فى الإبانة فإنه صرح بالتفويض ولكنه يظهر أنه رجع عن هذا الرأى إذ جاء فى اللمع(٢) أنه قرر التأويل كما ذهب إليه المتأخرون من بعده من الأشاعرة(٣)

والواقع أن الأشاعرة لايلتزمون بمذهب السلف فى جميع المسائل إذ خالف متأخروا الأشاعرة فى مسألة الصفات الخبرية حيث ذهبوا إلى التأويل دون التفويض ففسروا قوله تعالى الرحمن على العرش استوى بالاستيلاء أو العلم ويد الله بالقدرة (٤)

---

(١) راجع ابن عساكر تبيين كذب المفترى ص ١٥١ والشهرستانى فى الملل والنحل ج ١ ص ٩٤

(٢) الأشعرى اللمع ص ٩

(٣) راجع الشهرستانى المرجع السابق ج ١ ص ٩٦ والغزالى الاقتصاد فى الاعتقاد :

(٤) راجع إمام الحرمين الإرشاد ص ٤٠ والإيجى فى الموقف المقصد الثامن ص ٢٩٨ وراجع ابن خلدون المقدمة والشهرستانى الملل والنحل

وكان لهذا الاتجاه أنصار وأتباع كثيرون من العلماء والمفكرين كأبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين وحجة الإسلام الإمام الغزالى وكلهم سلكوا منهج الأشعرى وقل أن يضيفوا جديداً بوجه عام فى المنهج فجميعهم يأخذون العقل لخدمة النص ولا يقدمونه عليه لذلك لا نزاع فى أن الصبغة السلفية هى السائدة بصفة عامة لدى الأشاعرة .

هذا بالنسبة لموضوعات علم الكلام :

أما بالنسبة للممنوعين من الاشتغال به فيذكر التفتازانى فى شرحه على العقائد النسفية طوائف أربعة تمنع من الاشتغال بعلم الكلام وهى تمثل الكلام المذموم :

الأولى : من هو متعصب يقصد به ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق فى مطالبه .

الثانية : من لم يرزق فطنة تفى بتوصيل اليقين فنظره فى مباديه يفضى إلى التشكيك فى قواعد الدين فعليه أن يتسم بسمة العاجز ويتدين بدين العجائز :

الثالثة : من هو معوج فى الدين مخطىء طريق اليقين .

الرابعة من يتوغل فى الخوض فى الحكمة فيقع فى ظلمات الفلسفة فربما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه(١)

وعلى هذا فإن علم الكلام عند هؤلاء ليس محموداً لذاته أو مذموماً لذاته بل هو كما يقول الإمام الغزالى إن فيه منفعة وفيه مضرة فهو باعتبار منفعته

---

(١) التفتازانى شرح العقائد النسفية ص ١٩ ، وراجع د . على عبد الفتاح المرجع السابق ص ١١٣

فى وقت الانتفاع حلال أومندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد عن الجزم والتصميم فذلك مما يحصل فى الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه لأشخاص فهذا ضررة فى الاعتقاد الحق وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره(١)، وعلى هذا وذاك يتضح رأى علماء الأمة من علم الكلام، وعلى الرغم مما وقع فيه أصحاب الاتجاهات المجافية للنطق والتوحيد من سلبيات لا يمكن أن تقلل من قيمته وأهميته فى تجلية قضاياه بل إنه ضرورى لحياتنا فى العصر الراهن كما وقفنا على ذلك فيما تقدم، لما يمكن أن يقوم به فى العصر الحاضر كما كان فى العصر الماضى فى الدفاع عن قضايا الإسلام والمسلمين.

---

(١) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٠٣ ط الحلبى

تعقيب :

وبعد هذا البيان لموقف علماء الأمة من دراسة قضايا علم الكلام نستطيع أن نقول : إن المتكلمين وإن اختلفوا منهجاً فى تناول قضايا هـذا العلم إلا أن الخلاف بينهم لم يتناول أصول الدين الأساسية التى يقام عليها بناء الدين فى ذات الإنسان كالإيمان بوحدانية الله تعالى والإيمان بالأنبياء والكتب والرسل واليوم الآخر كما فى الحديث الذى رواه ابن عمر عن النبى ﷺ — عن الإسلام . والإيمان ... هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أنهم وإن اختلفوا فى المنهج إلا أنهم يقفون موقفا موحدا فى مواجهة أعداء الإسلام من الوثنيين والزنادقة ومن وقف موقفهم بالدفاع عن قضايا العقيدة والرد على الخصـــوم الذين أرادوا تقويض بناء الدين فى ذات الإنسان بالجدل العقلى .

ونستطيع أن نقول إن العبارة التى تلخص قضايا علم الكلام فى ميزان الإسلام من استعمال الدليل العقلى أو النقلى هى ماقاله الإيجى صاحب كتاب المواقف : ودلائله — أى علم الكلام — يقينية يحكم بها صريح العقل وقد تأيدت بالنقل[(١)] فبصريح العقل المتوائم مع الفطرة والتوحيد يكون المنهج والطريق ، وبالنقل يحصل التأيد أى بالجمع بين وحى السماء واستقامة العقل وعلى هذا فالخلاف بينهم يدور حول مسائل فكرية فلسفية لا تمس شيئاً من أركان الإيمان .

ومن هنا فمحاولة المتكلمين للبحث فى علاقة الشرع بالعقـل إسلامية النشأة والطابع فقد حث القرآن الكريم العقول على تدبر ما فى الكون من

---

(١) المواقف الإيجى وراجع الدكتور يحيى هاشم الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية والمداخل للعقيدة الإسلامية ص ٢٣٥ .

آيات ، ودعا إلى استخدام العقل صراحة ، من أجل الوصول إلى الإيمان، فكان المتكلمون فى محاولتهم تلك فى نطاق الشرع تماما .

فالمعتزلة وإن كانوا يقدمون العقل على النقل إلا أن اعتمادهم على العقل وتأويلاتهم العقلية كانت فى مجموعها لاتخرج عن وحى النصوص الدينية ، فإنكارهم لصفات المعانى وغيرها ليس إنكاراً لنفس الصفات أو النصوص وإنما أنكروا أن هذه الصفات قائمة بالذات وزائدة عليها لإيمانهم بالتنزيه المطلق ونفى تعدد القدماء ولمحاربة الظاهرية القائلين بمنع أن يكون الاجتهاد والقياس أصلا من الأصول وأن الأصول هى الكتاب والسنة والإجماع فقط . وأن القياس أمر خارج عن مضمون الكتاب والسنة(١) .

ولاشك أن أصحاب هذا الاتجاه القائل بنفى الاجتهاد والقياس يمثلون اتجاهاً لاعقلياً يبتعد عن روح الإسلام إبتعاداً واضحاً ، فالإسلام، بل أى شريعة من الشرائع — كما يقول الشهرستانى : لا تنضبط . . . إلا باقتران الاجتهاد بها لأن من ضرورة الانتشار — أى انتشار الشريعة — فى العالم الحكم بأن الاجتهاد معتبر ، وقد رأينا الصحابة رضى الله عنهم كيف اجتهدوا وكم قاسوا(٢) . وهذا بخلاف قول الحشوية والظاهرية ومن نحا نحوهم .

أما الفلاسفة فكانوا يرمون من بحثهم فى هذه المشكلة إلى إظهار أن مايصل إليه الفيلسوف بعقله متفق مع ماجاءت به الشريعة فلاخلاف إذن بين الفلسفة التى تستخدم منهج العقل . والشريعة المستندة إلى الوحى .

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل حـ١ ص ٢٠٦ .
وراجع الدكتور أبوا لوفا الغنيمى التفتازانى علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٥٨ .

(٢) الشهرستانى الملل والنحل حـ١ ص ٢٠٦ .

وعلى هذا يتضح أن محاولة الفلاسفة التوفيق بين الدين والعقل لا تخلو من تكلف ظاهر ، فقد كان الفلاسفة معجبين بأرسطو وبغيره من الفلاسفة أيما إعجاب فتكلفوا فى أن يظهروا الفلسفة اليونانية وكأنها متفقة مع الدين واستخدموا فى هذا الصـــدد ضروباً من التأويلات للنصوص ، فى معرض التدليل على آرائهم ، التى لا يقرهم عليها علماء الشرع من متكلمين وفقهاء . وليست هذه دعوى بدون دليل فلقد اصطنع أصحاب هذا الاتجاه الفلسفى فى هذا السبيل نظريات بعيدة عن روح الإسلام فى بعض الأحيان(١)

— أما الأشاعرة والماتريدية فقد أثبتوا صفات المعانى لأنها صفات الكمال والتى يجب اتصاف الله بها إلا أنها ليست كصفة من صفات الحوادث .

وعلى هذا فمهما كان الخلاف بينهما فإنه لا يخرج عن ضوء النصوص وهدايتها لبنى البشر ، وهذا بخلاف اتجاه الفلاسفة .

والواقع أن جميع المتكلمين يقرون بمكانة العقل إلا أن الخلاف فى مدى الاعتماد عليه فى مقابلة النص ، فالمعتزلة فى بيان قضايا العقيدة يعطون للعقل الدور الرائد والأساسى بخلاف الأشاعرة والماتريدية ، كما أن الخلاف بينهما ليس كبيراً فكل منهما يتمسك بالنص ويحاول إثبات قضايا هذا العلم بالبرهان العقلى إلا أن أبا منصور كان يعطى للعقل سلطاناً أشمل وأكثر مما يعطيه الأشعرى ولكنه فى حدود أن يأخذ العقل فيما لا يخالف الشرع فإن خالف الشرع فلا بد من الخضوع لحكم الشرع(٢) .

---

(١) وذلك كقول الفارابي أن النبي والفيلسوف يستمدان من مصدر واحد هو العقل الفعال ، فإذا كان ذلك كذلك ترتب عليه ألا يكون ثمة خلاف بين وحى النبي وحكمة الفيلسوف ، راجع الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازاني علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٥٤ .

(٢) البياضى إشارات المرام والإمام أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٧٧ .

ومن نافلة القول بعد هذا البيان نستطيع أن نقول : إن الإفراط فى تقديم العقل على النقل فى تناول قضايا العقيدة قد يؤدى عند غلاة المعتزلة (١) والفلاسفة إلى آراء مجافية للمنطق والخروج عن النصوص كما تقف على العكس من ذلك فى الاعتماد على النصوص وإهمال العقل كما هو عند الحشوية والمجسمة ، والعلاج فى هذا المقام أو الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى يتضح فى عبارة الإمام الغزالى السابقة فى بيان الارتباط بين العقل والنقل وهذه فطرة الخلق التى أرادها خالق الإنسان للإنسان وهذا ما يقرره بعض المنصفين من الفلاسفة ، فكما ذهب الأشعرى إلى القول بأن الله خالق كل شىء ، وأنه لا حسن ولا خير ولا شر إلا ما اقتضته إرادة الله ، كذلك قرر ديكارت أن كل شىء يعتمد فى وجوده على الله ويستحيل أن يتصور غير ذلك ، وليس الأمر متعلقاً بما هو موجود فقط ، وإنما ليس من نظام ولا قانون ولا دافع من دوافع الخير أو الحق إلا وهو خاضع لله . ويعبر ديكارت عن رأيه هذا بعبارات أخرى فيقول : إن الأشياء المتصفة بأنها خيرة جداً يعود السبب فى خيريتها إلى ما أراده الله . ثم يزيد الأمر وضوحاً فيقول ما نصه : وإذن فلا ينبغى أن نظن أن الحقائق الأزلية تتوقف على العقل الإنسانى أو على وجود الأشياء وإنما على الإرادة الإلهية فقط (٢) .

---

(١) وذلك أن المعتزلة كانوا أول من تسلح بالعقل والمنطق فى مواجهة أعداء الدين إلا أن هذا المنهج العقلى المطلق كان يحمد لهم لو أنهم اكتفوا فى الرد على أعداء الاسلام .

كما أشار إلى ذلك ابن خلدون وأن الأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا . . . وأما الآن فلم يبق منها إلا تنزيه البارى عن كثير إبهاماته وإطلاقاته ، المقدمة لابن خلدون ص ٤٦٧ ط بيروت ١٩٨١ م .

(٢) دكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى علم الكلام وبعض مشكلاته ص ١٦٣ .

وهنا يتضح منطق الخلق وأن العقل آلة للإدراك ، وأن الوحى هو مصدر كل معرفة كما نادى بذلك أصحاب الاتجاه الأشعرى بالجمع بين مقتضيات الشرائع ، وموجبات العقول ، والتحقق من أنه لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول(١) .

ومن كل ما تقدم يدرك الانسان تكريم الاسلام العقل الأمر الذى يترتب عليه أن يحافظ العقل على قضايا الاسلام بما ينبغى أن يكون .

---

(١) دكتور سعدالدين صالح العقيدة الاسلامية ص ٨٣ ط الأولى ١٩٨٣ م .

المراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — كتب الصحاح

٣ — ابن الأثير : الكامل ط ١٣٤٨ هـ

٤ — ابن تيمية : الرد على المنطقيين ط ١٩٧٦ م

٥ — ابن تيمية : منهاج السنة النبوية القاهرة ١٣٢١ هـ

٦ — ابن تيمية : معارج الأصول من مجموعة الرسائل .

٧ — ابن الجوزى : تلبيس إبليس ط القاهرة الخانجى .

٨ — ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ط ١٣١٧ هـ

٩ — ابن خلدون : المقدمة ط الرابعة بيروت ١٩٨١ م

١٠ — ابن عساكر : تبيين كذب المفترى عليه شرح الشيخ زاهد الكوثرى القاهرة .

١١ — ابن رشد : مناهج الأدلة ط ١٣٢٨ هـ

١٢ — ابن منظور : لسان العرب ط دار المعارف .

١٣ — الفيروزابادى : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

١٤ — أبو عمر يوسف بن عبد البر : الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ط مكتبة القدسى .

١٥ — أبو نعيم : حلية الأولياء ط دار الكتب العلمية .

١٦ — الشهرستانى : الملل والنحل بهامش الفصل لابن حزم .

١٧ — إسماعيل بن موسى.

١٨ — د/ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته طبعه ١٩٧٩م

١٩ — د/ أحمد أبو السعادات : العقيدة الإسلاميـــة بالاشتراك ١٩٨٣م

٢٠ — الشيخ أحمد التابعى : مرشد الخلق إلى طريق الحق ط التقدم بشارع محمد على بالقاهرة .

٢١ — الشيخ أحمد الدرديرى : حاشية العلامة الصاوى على شرح الخريدة ط ١٢٢٨هـ

٢٢ — القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ط وهبة ١٩٦٥م

٢٣ — أبو الحسن الأشعرى : الإبانة عن أصول الديانة ط ١٣٢١هـ

٢٤ — أبو الحسن الأشعرى : كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع بيروت ١٩٥٢م

٢٥ — أبو الحسن الأشعرى : مقـــالات الإسلاميين تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد ط النهضة المصرية ١٩٥٤م

٢٦ — السيوطى : صون المنطق والكلام تحقيق د/ النشار ١٩٨٠م مجمع البحوث.

٢٧ — الشهرستانى : نهاية الأقدام فى علم الكلام .

٢٨ — التفتازانى : شرح العقائد النسفية القاهرة ١٣٥٨هـ

٢٩ — التهانوى : كشاف اصطلاحات العلوم والفنون .

٣٠ — الجرجانى : التعريفات ط بيروت ١٩٧٣م

٣١ — الشيخ إبراهيم محمد البيجورى : تحفة المريد على جوهرة التوحيد ط ١٩٣٩م

٣٢ — الشيخ إبراهيم محمد البيجورى : شرح البيجورى على الجوهرة طبعة ١٩٧٥ م

٣٣ — الغزالى : إحياء علوم الدين طبعة ١٩٥٧م

٣٤ — الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد طبعة ١٩٦٦ الحلبى .

٣٥ — الغزالى : الجام العوام عن علم الكلام تحقيق رياض مصطفى العبد الله ١٩٨٦ م

٣٦ — الغزالى : معاج القدس ط ١٣٢٧هـ

٣٧ — الغزالى : المنقذ من الضلال تحقيق د/عبد الحليم محمود الأنجلو المصرية ١٩٥٥ م

٣٨ — د/ جميل صليبا : المعجم الفلسفى جـ١ ، جـ٢ طبعة دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٣ م

٣٩ — الأستاذ حسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية .

٤٠ — د / سعد الدين السيد صالح : العقيدة الإسلامية ط ١٩٨٣م

٤١ — د / سليمان سليمان خميس : مذكرة التوحيد ط ١٩٨٣م

٤٢ — د/عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ط الكتب الحديثة ١٩٧٣م

٤٣ — د/عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ط الأنجلو المصرية ١٩٥٥م

٤٤ — د/ عبد الحميد شقير بالاشتراك : تيسير الاقتصاد فى الاعتقاد.

٤٥ — د/ عبد العزيز سيف النصر : فلسفة علم الكلام .

٤٦ — الشيخ عبد الله الشرقاوى : على شرح الهدهد على السنوسية ط ١٣١١هـ .

٤٧ — د/ عثمان أمين : إحصاء العلوم ط الثالثة ١٩٦٨ م

٤٨ — د/علي جبر : مذكرة في علم التوحيد .

٤٩ — د/ علي عبد الفتاح المغربي : الفرق الإسلامية طبعة١٩٨٦م

٥٠ — د/ عوض الله حجازي : الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية بالاشتراك ط(٢) ١٩٥٩ م

٥١ — د/عوض الله حجازي : في العقيدة والأخلاق بالاشتراك .

٥٢ — د/محمد البهي : الجانب الإلهي من الفكر الإسلامي .

٥٣ — محمد إقبال : تجديد الفكر الديني ترجمة محمود عباس طبعة ١٩٦٨ م

٥٤ — الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية .

٥٥ — الأستاذ محمد حسن موسى محمد الغزالي : قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ط الأولى ١٩٨٧م

٥٦ — د/محمد ربيع الجوهري : الامام الشافعي وعلم الكلام - طبعة ١٩٨٦ م

٥٧ — د/محمد عبد الحميد بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في بناء الفرد والمجتمع الطبعة الرابعة ١٩٧٣م الأنجلو المصرية .

٥٨ — د/ عبد الستار نصار — المدرسة الفلسفة — الطبعة الأولى ١٩٧٩ م

٥٩ — د/ محمد عبد الله دراز الدين طبعة ١٩٥٢ م .

٦٠ — د/ محمد كمال جعفر في الفلسفة : مدخل وتاريخ بالاشتراك طبعة ١٩٨١ م

٦١ — الشيخ محمد عبده : ورسالة التوحيد طبعة الشعب .

٦٢ - دكتور حسين حسن مبارك - علم التوحيد ١٩٨٢م

٦٣ - دكتور محمود محمد مزروعة - دراسات فى العقيدة ط ١٩٧٢م

٦٤ - دكتور محمد يوسف موسى - الإسلام وحاجة الإنسانية إليه طبعة دار الكتاب العربى ١٩٦١م

٦٥ - الشيخ مصطفى عبد الرازق - تمهيد لتاريخ الفلسفة طبعة ١٩٤٤م لجنة التأليف .

٦٦ - دكتور مصطفى عمران - مقدمة علم الكلام ١٩٨٣م - طاش كبرى زادة - مفتاح دار السعادة .

٦٧ - د/ صلاح عبد العليم : مذكرة فى النصوص الفلسفية ١٩٨٨م

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب
١٥٥٣ / ١٩٨٩ م